مرض جديد فى بريطانيا
اسمه «إسلاموفوبيا» !

فى صيف ٢٠٠١ خصصت القناة الرابعة بالتليفزيون البريطانى عدة حلقات عن الإسلام والمسلمين فى بريطانيا صورت فيه جماعات من المسلمين من باكستان ودول آسيوية أخرى يعيشون فى بريطانيا منعزلين عن المجتمع البريطانى، ويحملون الجنسية البريطانية ولكنهم لا يشعرون بالانتماء لهذا البلد الذى أعطاهم الجنسية والحماية وفرص الحياة والتعليم، وتوحى الحلقات بأن هؤلاء المسلمين يمثلون بؤرا للعنف وربما للإرهاب أيضًا.

تصور الحلقات فى البداية شابا باكستانيا مسلما غادر بريطانيا لسنوات قليلة ثم عاد إليها، وقام بجولة مع مقدم البرنامج لزيارة أصدقائه ومعارفه القدامى فاكتشف أنهم تغيروا عما كانوا عليه، وأصبحوا يعتنقون فكرا سلفيا جامدا، ويرفضون مظاهر الحضارة الغربية التى هاجروا إليها من بلادهم طواعية ولم يأتوا مجبرين، كما يرفضون قيم وتقاليد المجتمع البريطانى، ويرفضون الثقافة البريطانية. ووجد صديقه الذى كان يرافقه كل ليلة فى سهرات الرقص وفى صالات «الديسكو» قد ارتدى جلبابا قصيرا وأطلق لحيته وترك كل شىء، حتى عمله القديم تركه أيضًا وفتح محلا صغيرا فى الحى الذى يعيش فيه المسلمون يبيع فيه الكتب والتسجيلات الإسلامية وزجاجات العطر والمسابح، وحين جلس معه ليسأله عن هذا الانقلاب الذى حدث فى حياته قال له إنه وجد المجتمع الغربى منحلا، ومخالفا للشريعة الإسلامية، وقد أقنعه بعض الدعاة بأن حياته خطأ فى خطأ وعليه أن يتوب إلى الله ويبعد بنفسه عن الضلال الذى يعيش فيه البريطانيون !.

وينتقل مقدم البرنامج بعد ذلك ليقدم مشاهد فى شوارع الأحياء التى يعيش فيها المسلمون، وتنتقل الكاميرا بين النساء وهن يرتدين «النقاب» ولا تظهر غير

العيون فقط، والرجال وهم يرتدون الجلباب ويطلقون اللحى ويضعون فى أقدامهم شباشب، والفتيات الصغيرات عليهن ملابس طويلة وعلى رءوسهن «الخمار» والصبيان الصغار يلبسون الجلابيب والشباشب أيضًا، ويذهب الأطفال إلى مدارس إسلامية خاصة لا تخضع لإشراف الحكومة، لتحفيظ القرآن وتعليم الدين الإسلامى بالشروح والتفسيرات الأصولية المتشددة، والمدرسات يجلسن داخل المدرسة بالنقاب، ومدارس البنات لا يدخلها الرجال ولا الصبيان، وكذلك مدارس الصبيان ليس فيها تلميذة أو معلمة واحدة. .

ويجرى مقدم البرنامج حوارات مع بعض من قابلهم من المسلمين من أصول باكستانية وإيرانية وغيرها وليس بينهم مسلمون من أصول عربية، فيتبين من هذه الحوارات أنهم حصلوا على الجنسية البريطانية ولهم حقوق وامتيازات المواطنين البريطانيين فى العمل، ومعونة البطالة، والتأمين الصحى والعلاج المجانى. . الخ، وغالبية الجيل الأول من المهاجرين يعيشون فى بريطانيا ولا يعرفون من اللغة الإنجليزية غير كلمات تكفيهم للمعاملات الضرورية، أما الأبناء من الجيل الثانى والثالث فهم يجيدون اللغة الإنجليزية كما يجيدون لغات آبائهم، ويعيشون فى بيوتهم بتقاليد وأسلوب الحياة فى بلادهم الأصلية، وحين سأل مقدم البرنامج: أين ولاؤك وانتماؤك: هل هما لبريطانيا التى تحمل جنسيتها، أجاب كل من سألهم: لا.. لا.. لا نشعر بالولاء لبريطانيا.. وحين سألهم: إذا كانت بريطانيا فى حرب مع مسلمين فهل تحارب فى صفوف بريطانيا أجابوا جميعًا: لا.. لن نحارب مسلمين.. فكل مسلم هو أخ لنا.. والولاء للإسلام وليس للوطن.. وقالوا أيضًا: إن البريطانيين يرفضون التعامل معنا على قدم المساواة كما يرفضون انضمامنا إليهم فى مجالسهم وحياتهم!. .

وهكذا تعمد البرنامج اختيار نماذج معينة لتعزيز الانزعاج الذى يشعر به البريطانيون من تجمعات المسلمين، خصوصا بعد أن أحرقوا بعض البيوت، واشتبكوا مع رجال البوليس وحرقوا سيارات الشرطة وسيارات الإطفاء، واضطرت السلطات البريطانية لاستدعاء قوات خاصة للسيطرة على الموقف. .

وقال المعلقون: إن ما حدث شيء جديد في بريطانيا يؤكد المخاوف من الإسلام والمسلمين !

ولم يكن الأمر محتاجا لهذا البرنامج، لأن بريطانيا بالفعل تعيش في حالة من القلق من الإسلام والمسلمين. . تظهر في محاولات دراسة الإسلام ومجتمعات المسلمين بقصد الفهم وتحديد الأسلوب المناسب للتعامل معهم. . كما تظهر في تعليقات البعض التي تكشف الخوف والريبة. . وتظهر كذلك في الحذر الذي يبديه بعض البريطانيين عندما يتعاملون مع مسلمين. . وفي عدم وضوح تعاليم الإسلام في عقول معظم البريطانيين ويؤدي إلى الخلط بين الإسلام والعنف والإرهاب.. وتصور أن أسامة بن لادن هو «الرمز» أو «المثال» أو «النموذج» للمسلمين بعدائه للغرب. . وتحريضه لأنصاره، وفتواه بمشروعية كل عمل للتدمير والانتقام والتخريب في المجتمعات الغربية. .

وفي زيارة إلى لندن قدم لي صديق بريطاني كتيبا صغيرا وجدت عنوانه مثيرًا للغاية ، والعنوان هو «إسلاموفوبيا» والفوبيا هي المخاوف المرضية ، فهناك مثلا أشخاص لديهم مخاوف مرضية وليست مخاوف عادية من الظلام أو من الأماكن المرتفعة أو من الفئران. . وهكذا.. وعنوان الكتاب يوحي بوجود مخاوف شديدة وصلت إلى الحد الذي يعتبره الأطباء النفسيون مرضا نفسيًا يحتاج إلى علاج.

وهذا الكتيب عبارة عن تقرير استشاري صادر عن لجنة تضم عددا من المفكرين والعلماء البريطانيين اسمها «المسلمون البريطانيون والاسلاموفوبيا» يرأسها البروفسيور جوردن كونواي نائب المستشار لجامعة ساسكس Sussex وقد أنشئت هذه اللجنة عام ١٩٩٦ - وفي مقدمة التقرير يقول البروفيسور جوردون كونواي: إذا كنت تشك في وجود «الإسلامو فوبيا» في بريطانيا ، فإنني أقترح عليك قضاء أسبوع في قراءة الصحف المحلية والقومية كما فعلت أنا، وستجد أن المقالات التي تشير إلى المسلمين أو إلى الإسلام فيها تعليقات متحيزة ومعادية وهي في الغالب غير مهذبة، بل في بعض الأحيان تكون التعليقات وقحة. وحيث يسير الإعلام فإن معظم الناس يسيرون وراءه. . والمسلمون البريطانيون يعانون من التفرقة العنصرية في أماكن الدراسة والعمل، وتنتشر أعمال التحرش والعنف ضد المسلمين في المجتمع البريطاني. .

ويضيف البروفيسور جوردون كونواى: وقد وافقت على رئاسة لجنة «رانيميد» الخاصة بالمسلمين البريطانيين والإسلاموفوبيا لأننى أعتقد أن «الإسلاموفوبيا» ظاهرة خطيرة ومدمرة لمجتمعنا ، وقد علمتنى التجربة أن أتعايش وأعمل مع أشخاص ينتمون إلى عقائد وثقافات مختلفة فى آسيا وأفريقيا، ووجدت أن معظم حالات التحيز تنتج عن الفقر، والبطالة والتعليم المتدنى، والظروف السيئة فى العمل والسكن، كما وجدت أنه عن طريق المشاركة والتعلم من خبرات وأفكار بعضنا البعض نستطيع إيجاد وسائل جديدة لمعالجة أسباب الحرمان والتفرقة العنصرية. .

ويقول البروفيسور جوردون كونواى أيضًا فى المقدمة : «المقصود من هذه المقالة الاستشارية استثارة ردود الأفعال، وطرح مجموعة من الأسئلة، وفى التقرير النهائى نهدف إلى مناقشة ومعالجة قضايا التعليم، والتفرقة العنصرية ، والتحرش ، والعنف ، ونقدم مقترحات لإجراء بعض التعديلات الممكنة فى القوانين وفى سياسات الحكومة» .

ثم يقول إن كلمة «إسلاموفوبيا» مبتكرة وحديثة نسبيًا، ومن المحتمل أن تكون مشتقة على غرار Xinophobia (إرهاب الأجانب) والكلمة الأخيرة ظهرت فى القرن التاسع عشر مشتقة من الكلمة اليونانية Xeno غريب أو أجنبى، و Phobia معناها الرعب أو الخوف، وفى قاموس اكسفورد كلمة Xenophobia تعنى كراهية الأجانب أو المخاوف المرضية من الأجانب أو الكراهية العميقة للأجانب، وقد اكتسب هذا المصطلح معانى إضافية فى أوربا فى الثلاثين عاما الماضية، وأصبح المقصود به فى فرنسا وألمانيا مثلا المهاجرين الأجانب من المغرب والجزائر وتركيا ويوغوسلافيا ، وعندما تشير لجان الاتحاد الأوربى إلى هذه العبارة فإنهم يقصدون الأجانب داخل الدول الأوربية وليس الأجانب فى دول العالم عمومًا ، أما العبارة الجديدة المبتكرة «إسلاموفوبيا» فإنها تتضمن المخاوف بنوعيها.. مخاوف من المسلمين فى الخارج فى بلادهم، ومخاوف من المسلمين الذين يعيشون داخل بريطانيا، وبذلك فإن كثيرا من غير المسلمين يزدادون خوفا من الإسلام، وكراهية له، وتتضمن التشبيهات المتكررة التى تستخدم للإثارة

القول بأن المسلمين فى أوربا هم الطابور الخامس ، ورأس الجسر، وجزر غريبة، وحصان طروادة ، والعدو الداخلى. . إلخ.

ويقول التقرير بعد ذلك :

«الإسلامو فوبيا» معناها الكراهية أو الخوف من الإسلام والمسلمين ، وهى موجودة فى الدول الغربية وثقافاتها منذ قرون ، ولكنها ازدادت وضوحا وتطرفاوخطورة فى السنوات العشرين الأخيرة فى كل قطاعات الإعلام ، وتنتشر فى كل قطاعات المجتمع ، وإن كان هذا التقرير يهتم بالإسلاموفوبيا فى بريطانيا، فإنه تجب الإشارة إلى أن الوضع فى بريطانيا يتأثر بالتطورات والأحداث التى تقع فى الأماكن الأخرى. ولذلك تجب مناقشة التأثير العملى للإسلاموفوبيا فى بريطانيا وكيف أنها تؤثر على مشاركة المسلمين فى الحياة العامة ، كما تؤثر فى نظام التعليم و مظاهر التفرقة العنصرية فى التوظف ، وتتسبب فى حوادث العنف ، وفى انتشار الفقر والحرمان. .

وإن نقد أو معارضة المعتقدات والتعاليم والممارسات الإسلامية ليست أمرًا يدعو للخوف فى ذاتها ، ففى إطار الديمقراطية وحرية الفكر، يكون من الأمور الحتمية والصحية ممارسة النقد بشىء من الغلظة أحيانا للآراء والممارسات التى لا تتفق مع معتقداتهم وآرائهم ، ويكون من المنطقى أيضا توجيه النقد إلى نظم ودول إسلامية ، عندما تكون حكوماتها لا تعترف بالحريات وحقوق الإنسان ولاتمارس الديمقراطية، وكذلك من المنطقى توجيه النقد إلى معاملة المرأة فى بعض الدول الإسلامية ، ونقد الآراء والاتجاهات التى يعتنقها بعض المسلمين عن الغرب، ومن المهم إدراك أن المناظرات والاختلاف فى الرأى حول هذه القضايا يحدث بين المسلمين وغير المسلمين، كما يحدث بين المسلمين أنفسهم. . إذن فكيف تمكن التفرقة بين النقد المنطقى والاختلاف فى الرأى من ناحية و «الإسلامو فوبيا» من ناحية أخرى ؟. .

ويقول التقرير:

إن المخاوف المرضية من الإسلام لها سبع سمات أساسية مرتبطة بعضها ببعض، والحديث عن سمة منها يثير ضمنا بقية السمات، وهذه السمات هى :

أولا : رؤية الثقافة الإسلامية على أنها متحجرة وغير قابلة للتغير.

ثانيا : الزعم بأن الثقافات الإسلامية تختلف اختلافا كاملا عن الثقافات الأخرى.

ثالثا : اعتبار الإسلام مصدر تهديد دائم.

رابعا : الزعم بأن أنصار الإسلام يستخدمون عقيدتهم أساسا استخداماً سياسيا وعسكريا. .

خامسا : رفض انتقادات المسلمين الموجهة للمجتمعات والثقافات الغربية رفضا لا شعوريا. .

سادسًا : الخوف من الإسلام والعداء العنصرى لهجرة المسلمين إلى دول أوربا..

سابعا : اعتبار «الإسلاموفوبيا» أمرا طبيعيا ولا يمثل أية مشكلة. .

وعن السمة الأولى «للإسلاموفوبيا» يقول التقرير :

إن غير المسلمين يصورون الإسلام دائما على أنه جامد ومتحجر وغير متسامح مع من يختلف معه أو يدخل معه فى نزاع، وهذه الفكرة العامة لا تضع فى اعتبارها الاختلافات الجوهرية بين مجتمع وآخر فى العالم الإسلامى ، والتغيرات التى حدثت وتحدث فيها ، ولا تضع فى اعتبارها الحقيقة التى تشير إلى وجود توتر واختلافات بين المسلمين أنفسهم، وتتجاهل ما يجرى داخل العالم الإسلامى من جهود ومجادلات حول الحريات وحقوق الإنسان وتحسين العلاقات بين الإسلام والعقائد الأخرى، وبين الإسلام والحياة، وباختصار فإن هناك مناقشات واختلافات داخل المجتمعات الإسلامية تماثل ما يحدث فى المجتمعات الغربية ، ولا يلحظها الغربيون ولا يلتفتون إليها ، ونتيجة لتجاهل الاختلافات والتنوع داخل العالم الإسلامى فإن الانتقادات التى يوجهها الإعلام البريطانى إلى دول مثل العراق وإيران والسعودية تؤخذ على أنها هجمات منظمة على المسلمين فى المناطق البريطانية أيضا مثل براد فورد، وبرمنجهام وتاورهاملتز ، وبعض المقالات مثلا تربط بين الهجوم على المسلمين من أصل باكستانى فى برمنجهام والهجوم على صدام حسين وياسر عرفات والخومينى. .

وعن السمة الثانية للإسلاموفوبيا يقول التقرير :

إن تجاهل الاختلافات والتنوع داخل الثقافات الإسلامية والحديث عن الإسلام على أنه مفهوم واحد فى كل الدول الإسلامية وعن المسلمين على أنهم نمط واحد أو نموذج واحد متكرر يرجع إلى عدم إدراك الفروق بين المسلمين فى الشرق الأوسط والمسلمين فى جنوب آسيا. . بين الإيرانيين والعرب. . بين البوسنة والشيشان وباكستان وبنجلاديش ويضعهم جميعا فى سلة واحدة. . كما لا يدرك معظم المتحدثين عن الإسلام الفرق بين كثير من الحركات والأحزاب والمشروعات السياسية القائمة باسم الإسلام ، وحتى الذين يسميهم الغربيون «المتشددون» ليسوا فريقا واحدا، ولا يتفقون جميعا على فكر واحد، وليس بينهم اتفاق إلا فى قضايا محدودة، وأيضا لا يدرك الغربيون الفرق بين المسلمين الذين ينتقدون بشدة انتهاك حقوق الإنسان فى بعض الدول الإسلامية، والمسلمين الذين يرفضون التسليم بوجود هذا الانتهاك ، ويرجعون انتقادات الآخرين إلى أنها مجرد أعراض لظاهرة «الإسلاموفوبيا» ولا يفرق الغربيون أيضا بين الجيل الأول والجيل الثانى أو الثالث من المسلمين المهاجرين إلى أوربا، ولا يعرفون الفروق بين التفسيرات المختلفة للتعاليم والمفاهيم فى القرآن والسنة، كما لا يدركون الفوارق بين مفاهيم وخبرات الرجل والمرأة، وبين التيارات الفكرية وأساليب الحياة فى القرن العشرين على سبيل المثال والحركات الخاصة بإحياء الماضى، كذلك لا يدرك بعض الغربيين أن هناك فروقا بين أفراد الطبقات الاجتماعية المختلفة فى المعتقدات والأفكار الإسلامية. .

وعن السمة الثالثة للإسلاموفوبيا يقول التقرير :

إن هناك اعتقادا بوجود اختلاف كامل بين الإسلام من ناحية، والعالم غير الإسلامى من ناحية أخرى ، وهذا الإصرار على الاختلاف يتضمن بالتأكيد ادعاءات بشأن المسلمين وادعاءات أخرى عن غير المسلمين. ومن الأمثلة على الأفكار النمطية عن المجتمعات والثقافات الإسلامية وغير الإسلامية الادعاءات الآتية التى تتردد فى الإعلام وعلى الألسنة فى الغرب :

- إن الثقافة الإسلامية قائمة على إساءة معاملة المرأة ، بينما تخلصت الأديان والثقافات الأخرى من النظام الأبوى والتفرقة بين الجنسين وكراهية النساء. .
- إن المسلمين متشددون فى تفسيرهم للقرآن ، بينما لا تعرف العقائد الدينية الأخرى الجمود والتمسك بالحرفية فى فهم وتفسير النصوص الدينية. .
- إن المسلمين يوظفون المعتقدات الدينية لتدعيم وتبرير نواياهم وأهدافهم العسكرية والسياسية ، بينما المجتمعات المتأثرة بالأديان الأخرى لاتمارس مثل هذا الدمج بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية الذى يؤمن به المسلمون. .
- المسلمون لا يميزون بين المعتقدات الدينية من ناحية والعادات الاجتماعية من ناحية أخرى، وعلى سبيل المثال فإن العادات الريفية فى باكستان يمارسونها وكأنها جزء من العقائد الدينية ، بينما لا يحدث فى الأديان الأخرى مثل هذا الخلطأو التداخل بين العقيدة والثقافة المحلية. .
- المسلمون يواجهون صعوبات فى تنظيم أنفسهم وإرسال ممثلين عنهم إلى الهيئات الخارجية ، بينما لا تمثل قضايا التمثيل والشرعية أية مشاكل لأصحاب الديانات الأخرى. .
- المسلمون كتلة متحجرة، مغسولة الدماغ ، ذات صوت أحادى ولا تتسامح مع الآراء التى يختلف معهم ولا تحترم تعددية الآراء ، بينما نجد فى الأديان الأخرى أصواتا متعددة واختلافات ومناقشات داخلية صحية تدور بتسامح وبدون عنف. .

وعن السمة الرابعة يقول التقرير :

دائما ينظر الغربيون إلى الإسلام على أنه عدو دائم للعالم غير الإسلامى، وفى أوائل التسعينات قال : «بيريجرين ورستورن» إن الإسلام كان فى يوم ما حضارة عظيمة تستحق الحوار معها ، ولكنه غير رأيه وقال بعد ذلك إن الإسلام تحول الآن إلى عدو بدائى لا يناسبه إلا أن يتم إخضاعه. .

ويفترض بعض المعلقين أن خضوع الإسلام لسيطرة الشيطان فى الفترة الأخيرة لم يكن من قبيل المصادفة، إذ حدث ذلك فى نفس الوقت تقريبا الذى تحولت فيه «إمبراطورية الشر» الشيوعية إلى خطر حقيقى، وكانت الثقافة الشعبية والثقافة السياسية فى الغرب فى حالة بحث عن عدو جديد. . عدو دائم. . ليحل محل الاتحاد السوفيتى، وكذلك كانت صناعة السلاح فى الغرب تبحث عن سوق جديدة توجه فيها إلى عدو جديد، ومهما يكن الأمر فإن المؤكد أن الإسلام يتم تصويره على أنه دين شرير تماما فى الخطاب المتأثر فى الغرب بالإسلاموفوبيا، وهذا الخطاب استدعى تعبير «صراع الحضارات» الذى استخدمه صمويل هنتنجتون الأستاذ بجامعة هارفارد وانتشر فى الفكر السياسى والاستراتيجى فى أنحاء العالم، والخطاب المتأثر بالإسلاموفوبيا فى الغرب يتحدث عن الإسلام باعتباره الوريث للنازية والشيوعية، وأنه عقيدة قائمة على الغزو والتسلل.

وما يقال فى كتابات وعلى ألسنة المثقفين والعامة فى الغرب مما يعبر عن رؤية الإسلام كمصدر تهديد للدول، والشعوب، والثقافة، والحضارة الغربية، يتلخص فيما يلى :

- المخاوف من الاستعمار الإسلامى، وأن هناك تهديدا إسلاميا لأوربا المسيحية، وأن الإسلام ينمو ويتوسع تدريجيا وبخطوات بطيئة، وما زال من الممكن إيقافه، ولكن سياسات القوى الغربية فعلت كل ما فى إمكانها لمساعدته على النمو، ويستغل الاستعمار الإسلامى الانحرافات الروحية والاجتماعية فى المجتمعات الغربية ويجد الأرض المناسبة للتوسع عليها كما يقول الفريد شيرمان.
- الفكرة القائلة بأن الإسلام تهديد رئيسى للسلام فى العالم، وأن التعصب الإسلامى يتطور تطورا سريعا ليصبح مصدر تهديد للسلام والأمن، وسببا للاضطرابات المحلية والقومية باستخدام الإرهاب، وهذا التهديد الإسلامى يماثل التهديدات النازية والفاشية فى الثلاثينات والتهديدات الشيوعية فى الخمسينات من القرن العشرين كما يقول كلير هولينجز.

- الفكرة السائدة بأن الحرب مع الإسلام حتمية، فعمليات التدمير والإرهاب ينفذها إسلاميون متعصبون، وهم سعداء لأنهم وفقا لعقيدتهم سوف يذهبون إلى نعيم الجنة ، ويتوقع أصحاب هذه الفكرة أن هناك حروبا لابد منها سوف تشتعل خلال نصف قرن على الأكثر وسينتصر فيها المسلمون المتعصبون كما يقول برنارد ليفين الذى حمل المسلمين المتعصبين تفجير مبنى أوكلاهوما فى الولايات المتحدة ثم تبين أن الذى قام بتفجير المبنى متعصب أمريكى اسمه تيموثى ماكفاى .
- النظرية التى تثير الرعب فى قلوب الغربيين بالقول بأن «قبائل أصحاب العمامات ستنتصر». . وبأن أى إنسان غريب يمكن أن يحصل على الجنسية البريطانية ولكنه لن يكون بريطانيا ، حتى ولو كان يجيد اللغة الإنجليزية، أوكان مسيحيا، وأبيض اللون. . صحيح أن بريطانيا لغتها الإنجليزية وهى دولة مسيحية بيضاء . ولكن الرعب والغضب يتملكان البريطانيين إذا تصوروا احتمال أن تصبح اللغة الأردية أوالعربية مثلا هى اللغة الغالبة فيها ، أوأن يكون الإسلام سائدا ، أو تصبح الوجوه السمراء هى الأغلبية. . ويقول البعض إنه بسبب رفض البريطانيين للإنجاب فإن الحضارة الأوربية الغربية سوف تتلاشى تدريجيا وتحيا من جديد بدماء جديدة غير أوربية، ثم تنتصر قبائل أصحاب العمامات، ويُدَّرس القرآن فى المدارس البريطانية كما قال جيبون، وكما كتب تشارلز مور فى صحيفة «سبكتاتور» .

ثم هناك الزعم بأن أنصار الإسلام يستخدمون عقيدتهم كسلاح لتحقيق أهدافهم السياسية والعسكرية والاستراتيجية أكثر من استخدامها على أنها مجرد عقيدة دينية ونظام أخلاقى ، وقد ظهرت هذه الفكرة بقوة منذ سنوات فى رسم كاريكاتيرى نُشر لأول مرة فى صحيفة «واشنطن بوست» الأمريكية، ثم نُشر بعد ذلك فى الصحافة الأوربية، وكان هذا الكاريكاتير يتكون من ثلاثة رسوم، الرسم الأول لرجل يرتدى العمامة وله لحية كبيرة يجلس فى الفراش يتمطى وتحته

تعليق : «آه. . هذا يوم جديد فى حياة رجل مسلم تقى» والرسم الثانى للرجل المسلم التقى وقد ترك الفراش ووقف يعد على أصابعه وهو يقول : «دعنا نر ما يجب علىّ عمله اليوم. . سأغلق الصحف. . وأقتل امرأة زانية. . وأجلد حبيبها. . وأطلق النار على الأكراد، وأرسل لهم بعض المال. . وأقوم باغتيال فرقة موسيقية فاسقة..»أما الرسم الثالث فهو لنفس الرجل المسلم التقى وهو يهز كتفيه، ويفتح يديه ويقول : « لا تنس الله. . إذا دعانى استجيب له» ويعبر هذا الكاريكاتير عن النظرة للإسلام فى الغرب أبلغ تعبير، على أنه دين جامد، لا يقبل التنوع والتعدد كما لا يقبل الحوار والمناقشة، ويرفض التطور والإبداع. . وأن المسلم متعصب. . وهمجى. . ومصدر تهديد دائم. . وأن الإسلام ليس عقيدة وحضارة ، ولا يمكن للآخرين التفاعل معه تفاعلا مثمرا أو أن يتعلموا منه شيئا له قيمة. . ويزعم هذا الكاريكاتير الذى انتشر، وكان له تأثير كبير، أن المسلمين يرتكبون الجرائم باسم الإسلام وينسبونها إلى الله: «إذا دعانى الله فأستجيب له».

وعن السمة الخامسة يقول التقرير:

يتم الخلط فى بريطانيا دائما بين الإسلاموفوبيا والعنصرية ، فهناك عنصرية فجة ضد الملونين السود، ومعظم المسلمين من ذوى البشرة السوداء أو السمراء. وأيضا فى بريطانيا تحيز ضد المهاجرين وما دام المسلمون فى بريطانيا لهم عادات مخالفة وخصوصا القادمين منهم من جنوب آسيا فإن البريطانيين يشعرون بالخوف من أن تهدد هذه العادات الغريبة بالقضاء على الثقافة الأصلية للشعب البريطانى، والتوحد بين المشاعر المعادية للإسلام والمشاعر المعادية للمهاجرين الآسيويين يمكن أن نلمسها بوضوح فى مقال ساخر ظهر منذ سنوات قليلة فى صحيفة «صن» البريطانية يسخر من معلمة فى مدرسة ابتدائية فى برمنجهام لأنها قررت إزالة صور الخنزير من اللوحات التوضيحية للحروف الأبجدية المعلقة على جدران الفصول لأن صورة الخنزير مكروهة ومحرمة عند بعض الآباء والتلاميذ المسلمين فى المدرسة خاصة الذين ينتمون إلى أصل باكستانى، وتضمن

المقال السخرية أيضا من المسلمين فى الشرق الأوسط، هاجم بعد ذلك وجود الآسيويين فى بريطانيا وماتقدمه المطاعم الآسيوية من الأطعمة، كما هاجم نظام التعليم البريطانى لأنه يسمح للتلاميذ من الديانات والأعراق المختلفة بالاستفادة من الميزات والفرص التى يحصل عليها أبناء البريطانيين فى التعليم.

ويقول التقرير أيضا إن الناس فى الغرب عموما وفى بريطانيا خصوصا يرفضون - لا شعوريا - الانتقادات التى يوجهها المسلمون للحرية ، والحداثة ، والعلمانية الغربية ويرون أن هذه الانتقادات لا تستحق المناقشة ، بينما يدور فى الدول الغربية جدل واسع حول هذه الموضوعات، مثل حدود حرية القول، والمطالبة بأخذ المعتقدات الدينية واللاهوتية بجدية فى المناظرات العامة ، ومعايير التحفظ والاعتدال فى العلاقات الجنسية.. الخ. . وعلى الرغم من أن المسلمين لهم وجهات نظر ورؤية مهمة تمكنهم من المساهمة فى هذه المناقشات فإن «الإسلاموفوبيا» تمنع دعوة أو تشجيع المسلمين على أن يكون لهم دور فى هذه الحوارات والاستماع إلى آرائهم .

وفى مقال صحيفة «صن» الساخر الذى نشر فى ١٢ نوفمبر ١٩٩١: ورد أن تدريس اللغة الإنجليزية يتم بطريقة عنصرية موجهة للطبقة المتوسطة البيضاء ، وإذا كنا نريد تشجيع المهاجرين على الاندماج فى مجتمعنا فإنه يجب علينا مساعدتهم على تعلم لغتنا وبدلا من الطريقة القديمة التى تعلم الأطفال حروف اللغة الإنجليزية بوضعها فى أوائل كلمات مثل : تفاح - أوكرة - أو قطة ، نعلم أبناء المسلمين الحروف فى أوائل كلمات تناسبهم مثل : بغداد، وآيات الله، والأمير ، والكعبة ، وحزب الله، والقذافى، وياسر عرفات ، والجهاد، والانتفاضة ، ومكة ، وصدام ، والكلاب الصهاينة ، والإمبريالية العدوانية ، وهكذا يمضى المقال فى التعبير عن صورة من صور «الإسلاموفوبيا» المنتشرة فى الصحافة البريطانية.

ويقول تقرير «الإسلاموفوبيا: إن كثيرا من المفكرين والكتّاب يرون أن التعبير عن الأفكار والمشاعر المعادية للإسلام من الأمور الجديرة بالاحترام ، ومن هؤلاء

ثلاثة من أهم الكبار هم: «هو لينجسوارث، وليفين، وشيرمان». ويقول أيضا ليست الصحف الصغيرة وحدها التى تشبه الإسلام بالشيطان، ولكن هناك عبارات ازدراء للإسلام تظهر بشكل منتظم فى جميع الصحف البريطانية، وفى عدد كبير من الكتب والكتيبات التى توزع على نحو واسع ، ففى الوقت الذى أثيرت فيه قضية سلمان رشدى مثلا ادعى «فاى ويلدون» فى تعقيب أصدره أن القرآن «غذاء لعدم التفكير، وهو ليس شيئا جميلا يمكن للمجتمع الاعتماد عليه ، وهو فقط سلاح وقوة للنوايا العدوانية العسكرية» وكتب «كيلر وى سيلك» فى صحيفة «ديلى اكسبريس» عن المسلمين «إنهم متخلفون ، وأشرار ، وإذا كنت بقولى هذا أعتبر عنصريا إذن فيجب على أن أكون عنصريا وأن أكون سعيدا وفخورا بأنى كذلك» ، وعندما طالب ولى العهد الأمير تشارلز فى خطابه فى ويلتون بارك فى ديسمبر ١٩٩٦ ببناء علاقات بين الإسلام والغرب، انتشرت فى الصحف البريطانية انتقادات صادرة عن «الإسلاموفوبيا»، ومنها مقال فى «ديلى اكسبريس» على سبيل المثال قال: «إن اقتراحات الأمير تشارلز يجب رفضها مادام معظم المسلمين البريطانيين يشعرون بأن انتماءهم الأول إلى المجتمع الإسلامى فى سائر أنحاء العالم، ويأتى شعورهم بالانتماء للمجتمع البريطانى فى المقام الثانى».

وكتب «ستيفن سنبدر» فى صحيفة «سبكتاتور» تعليقا على قضية سلمان رشدى: «إلى أى مدى يتم تدريس الديمقراطية فى المدارس البريطانية التى تضم أعدادا كبيرة من المهاجرين؟.. وقد وجدت نفسى أفكر بطريقة وطنية فيما يتعلق بالمدارس الأمريكية التى يبدأ التلاميذ يومهم فيها بتحية العلم ، وأتمنى أن يكون هناك علم للديمقراطية يرمز إلى حرية التعبير ليبدأ التلاميذ يومهم بتحيته فى المدارس البريطانية» وكان واضحا من سياق المقال أن كلمة «مهاجر» يقصد الكاتب بها «المسلم» وكان يعبر فى مقاله عن اعتقاده بأن الأطفال المسلمين فى بريطانيا متخلفون عن الأطفال الآخرين، ويحتاجون إلى تدريب خاص على الديمقراطية والوطنية. .

يقول التقرير: هكذا نرى أن الخطاب البريطانى المعبر عن الإسلاموفوبيا يكون فى بعض الأحيان متسما بالوقاحة ، وأحيانا كثيرة يكون لطيفا ، ولكن هذا الخطاب عموما جزء من نسيج الحياة اليومية فى بريطانيا الحديثة ، وهو يشبه الخطاب المعادى للسامية الذى كان سائدا فى أوائل القرن العشرين. والذين يطالبون بمقاومته أو وضع حد له لديهم – فى عقولهم – نفس التشبيهات التى كانت متداولة فى معاداة السامية، ولذلك فهم لا يستخفون بالصعوبات القائمة أمام محاولات التخفيف من أعراض «الإسلاموفوبيا».

ومعنى ذلك – أن اللجنة العلمية المكلفة بدراسة كيفية تخليص المجتمع البريطانى من مرض الخوف من الإسلام توصلت بعد البحث إلى أن ذلك ليس بالأمر السهل.. !

obeikandl.com

اعترافات بالانحياز ضد الإسلام

بريطانيا بلد الديمقراطية العريقة والدفاع عن حقوق الإنسان. . البلد الذى يعلن أنه متعدد الثقافات والديانات ولا يعرف التفرقة أو التحيز. . يعانى فيه المسلمون من التفرقة ويعترف البريطانيون أنفسهم بذلك .

قد تكون مفاجأة للبعض اعتراف البريطانيين أنفسهم بوجود مشاعر عدائية تجاه الإسلام والمسلمين فى بريطانيا. . وقد لا يصدق البعض أن لجنة خاصة شُكلت باسم«لجنة المسلمين البريطانيين والإسلاموفوبيا» مهمتها دراسة مظاهر ومخاطر ما اعتبروه مرضا نفسيا لدى البريطانيين يجعلهم يشعرون بالخوف من الإسلام والمسلمين ، وكانت هذه اللجنة برئاسة البروفيسور جوردون كونواى مستشار جامعة ساسكس Sussex.

وقد يدهش البعض أن البروفيسور جوردون كونواى قال فى تقرير اللجنة: إن المخاوف المرضية من الإسلام منتشرة فى بريطانيا ، وإن أعراضها تظهر بوضوح فى المقالات والتعليقات فى الصحف المحلية والقومية بما فيها من تحيز وعداء للإسلام والمسلمين وتستخدم غالبا أسلوبا مهذبا ، وأحيانا تستخدم أساليب وقحة وغير مهذبة فى التعبير عن هذا العداء. . وقال أيضا إن المسلمين البريطانيين يعانون من التفرقة العنصرية فى المدارس والعمل ، وتنتشر أعمال التحرش على الرغم من أنهم يحملون الجنسية البريطانية .

وبعد أن يستعرض التقرير مظاهر «الإسلاموفوبيا» انتقل إلى النتائج والعواقب التى يعانى منها المسلمون البريطانيون. . فقال إنهم يعانون من الظلم ، لأن مرض «الإسلاموفوبيا» يحول دون وجود التعددية الثقافية ويمنع وجود «العدل» ويفرض القيود على الحرية الشخصية ، ويؤثر على الشعور بالانتماء ، وإن «الإسلاموفوبيا» مصدر تهديد وخطر دائمين على المسلمين البريطانيين الذين

يبلغ عددهم مليون مسلم تقريبًا ، وهذا «المرض» يجعلهم لا يتمتعون بنفس الحقوق التى يتمتع بها البريطانيون الآخرون . كما أن هذا المرض يزيد احتمالات الفوضى الاجتماعية ويؤثر فى الاقتصاد والعدالة ويقتل الأفكار والأصوات المعتدلة بين المسلمين ، وعلى العكس من ذلك يدفعهم إلى الوقوع فى أيدى المتطرفين ويغذى الفكر الإرهابى فى الغرب. . أكثر من ذلك فإن «الإسلاموفوبيا» تمنع المسلمين وغير المسلمين من التعاون فى تشخيص وحل المشاكل التى تواجه المجتمع البريطانى ، وتَمنع أيضا البريطانيين غير المسلمين من تفهم حقيقة الميراث الثقافى والعلمى والفنى للإسلام والانتفاع منه والاستفادة من التعاليم الأخلاقية الإسلامية .

ويقول التقرير: إن مرض «الإسلاموفوبيا» موجود فى دول أخرى كثيرة وليس مقصورًا على بريطانيا وحدها ، ولذلك فإن كل ما يحدث فى بريطانيا يؤثر فى مواقع أخرى من العالم الغربى ، وبالتالى فإن عدم مواجهة هذه الظاهرة المرضية سيؤدى إلى تعقيد الأمور ويزيدها سوءا بسبب التأثيرات والأحداث والاتجاهات من مجتمعات أخرى ، ولا يغيب عن البال أن هذا العداء يدمر التعاون التجارى، والعلاقات الدبلوماسية والدولية ، ويزيد من صعوبة التعاون بين المسلمين وغير المسلمين فى حل المشاكل العامة، وعلى سبيل المثال فإن الصراع الدموى فى يوغسلافيا السابقة كان الإسلام عاملا من أهم عوامل هذا الصراع ، مما جعل كثيرا من المسلمين يرون أن «الإسلاموفوبيا» هى التى حركت الأحداث وحددت المواقف الغربية فى هذا الصراع .

بعد ذلك يحدد التقرير خمس نقاط رئيسية من مظاهر وعواقب «الإسلاموفوبيا» وهى: الحرمان – والإقصاء – التفرقة فى التعليم – التفرقة فى المعاملة – التحرش والعنف – الصراع والمواجهة . ثم يناقش كلا منها. .

يقول التقرير عن ظاهرة «الحرمان والإقصاء» إن الإحصائيات المنشورة توضح أن المسلمين البريطانيين من أصول باكستانية أو من بنجلاديش يعانون من البطالة أكثر من غيرهم من الأقليات الأخرى فى بريطانيا ، كما أنهم يعيشون فى ظروف عمل متدنية ، ويعانون من الفقر ، والحياة فى مساكن رديئة يتكدسون فيها ، ويعيشون فى معاناة بسبب نقص الرعاية الصحية ، وفرص التعليم غير المتكافئة،

وفى تقرير لجمعية العمل من أجل الأطفال الفقراء يتبين أن نسبة البطالة بين الذكور من البريطانيين من باكستان أو بنجلاديش تصل إلى ٢٩٪ فى عمومها، وتزيد النسبة بين الشباب بين ١٦ و ٢٤ عاما لتصل إلى ٣٤٪ بينما معدل البطالة بين البريطانيين البيض فى الإجمالى ١١٪ وبين الشباب ١٨٪ ، وعدد الأسر التى تحصل على إعانة بطالة ومساعدات اجتماعية ثلاثة أضعاف عدد الأسر من البريطانيين البيض. ودخل الذكور من ذوى المؤهلات العليا وأصولهم من باكستان أو بنجلاديش ٦٨٪ من دخل الذكور البيض، ونسبة البطالة بين هؤلاء ١٠٪، بينما النسبة بين البيض ٤٪ بنفس المؤهلات . ونتيجة لهذا العائق المادى فإن كثيرا من المسلمين البريطانيين أصبحوا أقل قدرة على المشاركة فى الحياة العامة والحياة السياسية ، بسبب الاتجاهات السلبية السائدة تجاه الإسلام والتى تعتبر أيضا مسئولة عن حرمان المناطق التى يعيش فيها المسلمون من الإصلاح والتجديد ونقص مشروعات مكافحة الفقر فى هذه المناطق .

وكذلك يرى كثير من المسلمين أن «الإسلاموفوبيا» هى السبب فى إقصاء المسلمين وحرمانهم من المواقع البارزة فى الأحزاب السياسية . فلم يظهر أبدا حزب إسلامى أو عضو مسلم فى مجلس اللوردات ، ولم يظهر إلا فى الانتخابات الأخيرة مرشح واحد مسلم فى انتخابات مجلس العموم ، ولم تعرف بريطانيا مرشحين مسلمين فى الانتخابات العامة إلا فى عام ١٩٩٧ ومع ذلك كانت فرصة النجاح للمرشحين المسلمين محدودة جدا .

أما عن التفرقة فى التعليم فإن نصيب المسلمين البريطانيين من التعليم يظهر فى رسالة أرسلتها طالبة مسلمة فى مدرسة ثانوية إلى لجنة «رونيميدى»تتحدث فيها عن الآثار النفسية التى يعانى منها التلاميذ المسلمون. ومثل هذه الرسالة كانت الدافع للجنة لكى تطرح أربعة تساؤلات أساسية هى : إلى أى مدى تراعى المدارس الاحتياجات البسيطة للطلبة المسلمين ؟ وهل ينبغى على الحكومة أن تقدم إعانات لتمويل مدارس المسلمين ؟ وما الذى يجب أن يدرسه جميع التلاميذ البريطانيين عن الإسلام سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين ؟ وما هو العمل الذى يجب على المدارس القيام به لتقليل آثار «الإسلاموفوبيا» فى الحياة المدرسية عموما ؟

وفى السنوات الأخيرة تعرضت الحكومة البريطانية لضغوط شديدة لكى تشارك فى تمويل مدارس المسلمين البريطانيين لتقلل من الشعور بالتفرقة لدى التلاميذ المسلمين ، ولتتساوى مدارس المسلمين مع المدارس التابعة للكنيسة البريطانية ، والمدارس الكاثوليكية ، والمدارس اليهودية الموجودة فى بريطانيا. وتقوم هذه المدارس على أساس أنها مظهر من مظاهر المساواة فى المجتمع ، وعلى هذا الأساس يجب أن تكون لمدارس المسلمين نفس الحقوق التى تحصل عليها المدارس الدينية الأخرى ، وهذه المساواة هى التى يمكن أن تؤكد التزام الحكومة بما تعلنه من احترام التعددية العقائدية ، ولكن المعارضين لهذه المدارس يقولون : إنه لا لزوم لوجودها مع وجود أماكن خالية فى المدارس الحكومية ، بينما يعتقد المسلمون البريطانيون أن السبب الحقيقى لحرمان مدارس المسلمين من الدعم المالى الحكومى هو المشاعر المعادية للإسلام. والجدير بالذكر أن فى بريطانيا ١٤ مدرسة إسلامية خاصة تضم أقل من ١٪ من مجموع التلاميذ المسلمين ، يتم تمويلها بالتبرعات، بينما يوجد ١٩٠٠ مدرسة تابعة لكنيسة إنجلترا ، و ١٨٠٠ مدرسة كاثوليكية ، و ١٧ مدرسة يهودية .

أما الرسالة الثانية التى كانت نقطة البداية لإثارة موضوع معاناة التلاميذ المسلمين فى مدارسهم فكانت من طالبة من بنجلاديش تقول ، إننى أبلغ من العمر خمسة عشر عاما . اعتنقت الإسلام مؤخرا، وقبل ذلك لم أكن أفهم ما هو الإسلام، ثم أدركت كم هو دين جميل ومثالى، وإننى أكتب إليكم حتى يشاركنى إنسان فى مشاعرى ، وأنا على يقين أنه سيفهم حقيقة مشاعرى ، فما إن بدأت أمارس الشعائر الإسلامية حتى تغيرت نظرة بعض المدرسين لى ، وأنا فى مدرسة أغلبية تلاميذها من أصول آسيوية ، ولذلك فإن التلاميذ لا يسببون لى أية مشكلة ، ولكن المشاكل من المدرسين الذين أجد المعاناة فى محاولة إقناعهم بأننى مسلمة ولست إرهابية ، ولكنهم لا يفهموننى ، ولا يفهمون دينى. . ومدرس الرياضيات واضح وصريح معى فهو يعلن أنه لا يحب المسلمين ، ويخرج عن حدود اللياقة ، ويهزأ بى وبزملائى المسلمين، والفتيات الأخريات اللاتى تحولن إلى الإسلام يواجهن نفس المعاناة التى أواجهها ، وقد يكون الوقت متأخرا بالنسبة لى لأننى لم يبق لى فى المدرسة سوى هذه السنة النهائية ، ولكنى مع

ذلك أود لو أستطيع أن أفعل شيئا لتغيير النظرة إلينا حتى لا يعانى الآخرون كما عانيت ، وأتمنى أن أجد نصيحة لما يمكن أن أقوم به لكى يحدث هذا التغيير .

هذه الرسالة وأمثالها من الشباب البريطانى المسلم أثارت اهتمام لجنة المسلمين البريطانيين والإسلاموفوبيا»، ويقول تقرير هذه اللجنة: إن كثيرا من المدارس حققت تقدما فى السنوات الأخيرة ولم يعد كل التلاميذ المسلمين يلاقون المعاملة من مدرسيهم بنفس الطريقة الخالية من الإحساس مثل صاحبة الرسالة ، وهناك دلائل تشير إلى أن التلاميذ من أصل باكستانى وبنجلاديشى ليسوا أقل من زملائهم البيض .

ويقول التقرير:

إن فى بريطانيا قانونا يمنع العنصرية والتمييز فى المعاملة على أساس اللون أو العنصر أو الجنسية أو على أساس الأصول القومية والعرقية، ولكن القانون لم ينص على منع التفرقة على أساس الدين، وعلى ذلك فإن هذا القانون لا يوفر الحماية الكاملة للمسلمين، والإحصائيات ليست متوافرة عن التمييز المباشر فى المعاملة ضد المسلمين، ومع ذلك وصلت إلى المحاكم حالات يشكو أصحابها من التمييز غير المباشر فى المعاملة ، وفى بعض القضايا تمكن المسلمون من الحصول على أحكام لصالحهم، وكمثال على ذلك إن القضاء أصدر حكما لصالح موظفة بريطانية مسلمة من أصل باكستانى ترتدى الملابس الطويلة لأن رئيسها فى العمل أرغمها على ارتداء ملابس قصيرة ، وفى قضية أخرى طلب مدير من مكتب التوظيف المحلى عدم ترشيح موظفين مسلمين وثبت للمحكمة أن هذا المدير متورط فى التمييز المباشر ضد طالبى الوظائف الآسيويين ، وفى قضية ثالثة وجدت المحكمة أن شركة أمرت موظفا مسلما بعدم أداء الصلاة فى مكان العمل، وقضية رابعة ثبت فيها للمحكمة أن شركة رفضت السماح للموظفين المسلمين بإجازة فى العيد، وكانت هناك أدلة كثيرة جدا على أن الموظفين البريطانيين المسيحيين واليهود من أصول غير بريطانية يتمتعون بحماية كاملة ويطبق عليهم قانون منع التمييز العنصرى، باعتبارهم ينتمون إلى مجموعات عرقية مميزة ، بينما لا تتوافر هذه الحماية لأصحاب العقائد الأخرى، والأمر غير الطبيعى أن حظر التمييز المباشر على أساس الدين على الوظائف واعتباره مخالفا للقانون

لا يطبق إلا فى جزء من المملكة المتحدة ، فى أيرلندا الشمالية ، وليس فى كل بريطانيا ، أما السبب فى عدم تدارك هذا الوضع الشاذ فإنه يرجع إلى «الإسلاموفوبيا» وما يترتب عليها من عدم اهتمام بمشاعر المسلمين ، مما يستلزم إصدار قانون جديد لمنع التفرقة على أساس الدين ليكون رسالة عامة واضحة بأن «الإسلاموفوبيا» لم تعد مقبولة ، وإن البريطانيين المسلمين لهم نفس الحقوق كسائر المواطنين .

بعد «التفرقة فى المعاملة» يتحدث التقرير عن «التحرش والعنف» فيقول: إن الإحصائيات غير متوافرة عن حالات العنف الجسدى والتحرش اللفظى ضد البريطانيين المسلمين ، لأن الشرطة لا تسجل الديانة أو الدول الأصلية التى ينتمى إليها الضحايا ، ولكن ما نشر من الإحصائيات يكفى لتوضيح أن المسلمين من أصول آسيوية مستهدفون أكثر من غيرهم ، وأن المناطق التى يسكن فيها المسلمون المتحررون من باكستان وبنجلاديش هى أكثر المناطق التى تنتشر فيها الهجمات العنصرية ، والمؤكد أن أغلبية الأشخاص الذين قتلوا بسبب العنف العنصرى فى السنوات الأخيرة كانوا مسلمين ، وتم قتلهم غالبا عن طريق المنظمات اليمينية مثل الحزب الوطنى البريطانى، وعلى سبيل المثال جاء فى أحد منشورات هذا الحزب أن فى بريطانيا مليونى مسلم يعيشون بيننا ومعظمهم ينتظرون اندلاع «حرب دينية» تتمزق فيها بريطانيا باسم الإسلام، ويقول المنشور: نحن نعتقد أن المسلمين البريطانيين والمهاجرين الآخرين من غير الأوروبيين يجب عليهم العودة إلى أوطانهم الأصلية» . وعندما اندلعت حرب الخليج ظهر رسم فى منطقة «روك ديلى» وتحته كلمات تقول : «مقابل كل جندى بريطانى قتل فى الخليج سيموت طفلان مسلمان»، ويقول التقرير: «إن الرقم الحقيقى للمسلمين البريطانيين هو مليون بريطانى مسلم» ولكن المنظمات اليمينية تحرص على مضاعفة العدد لكى تزيد من الشعور بالخطر .

وبعد ذلك يتحدث التقرير عن «المواجهة والصراع» فيقول إنه من السذاجة الادعاء - ولو للحظة - بعدم وجود صراعات بين الغرب والإسلام أو عدم وجود صراعات ملحوظة فى المجتمع البريطانى . وفى الماضى كانت هناك صراعات شملت الصليبيين، والفتوحات الإسلامية فى أسبانيا ، وانتشار الإسلام فى أوروبا

بالغزو ، والاستعمار الأوروبى للدول الإسلامية فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ، وفى الوقت الحاضر توجد صراعات المصالح، والصراع الحالى يتعلق بإسرائيل وفلسطين، وبالتحكم فى مصادر البترول فى الشرق الأوسط، والصراع فى البوسنة، ومع عدم وجود العدل وعدم تحقيق المصالحة فى إسرائيل وفلسطين والبوسنة ، ومع احتياج الدول الغربية إلى بترول الشرق الأوسط ، فهناك دائما احتمال بأن يؤدى تعارض المصالح إلى أن يعمل كل طرف على إخضاع الآخر ، ونتيجة للإخضاع سوف تتراكم المشاعر المعادية للإسلام فى بريطانيا مما يزيد من تعقيد الأمور ويجعل مقاومة «الإسلاموفوبيا» أمرا صعبا ، ويزيد الأمر صعوبة وجود الصراع فى مناطق أخرى مثل الشيشان وأفغانستان والهند، ونشوء صراعات وتوترات سياسية بين الدول الإسلامية نفسها وفى داخلها أيضا، وينظر الغربيون – والبريطانيون – إلى هذه الصراعات والتوترات على أنها صراع بين الحداثة التى يمثلها الغرب من ناحية والإسلام التقليدى المتشدد من ناحية أخرى ، والجماعات الإسلامية هى التى تحرص على صبغ كل الأمور بالصبغة الإسلامية، وهذا الصراع حين يبدأ فإنه سرعان ما يتحول إلى دائرة شريرة من العداء المتبادل، وتزيد قوة هذه الدوائر الشريرة بسبب «الإسلاموفوبيا» فيؤدى إلى تصعيد الصراع. .

يصل التقرير إلى الجانب العملى بعد أن انتهى من شرح ظاهرة الإسلاموفوبيا ومظاهرها وأسبابها ، فيطرح سؤالا : ما الذى يجب عمله ؟ ويقدم خمسة مبادئ أساسية يمكن أن تكون الأساس لعلاج هذه الظاهرة فى المجتمع البريطانى .

يقول التقرير: إن «الإسلاموفوبيا» أصبحت ظاهرة حقيقية وخطيرة فى الحياة وفى الثقافة المعاصرة ، ومن الضرورى أن يعمل الغرب على مواجهة هذه الظاهرة والحد منها ، وإن الكثير من الشخصيات فى بريطانيا لها دور فعال لابد لها من القيام به على المستوى الفردى وعلى المستوى الجماعى بالتنسيق فيما بينهم ، وهذه الشخصيات تضم السياسيين، والصحفيين، وأصحاب الرأى، وصانعى السياسات فى التعليم ، والتشريع ، والتوظيف ، والحكومة ، ورؤساء الكنائس ، والشخصيات البارزة فى مجتمعات المسلمين ، ومطلوب لذلك القيام بأعمال متعددة، ولا يكفى عمل واحد. . مطلوب تعديل قانون التمييز فى المعاملة،

وبالإضافة إلى ذلك مطلوب أيضا اتخاذ إجراءات محددة وملموسة بالنسبة للعقائد المختلفة ، وبنـاء الثقـة والاحـترام المتبـادل بـين أصحـاب الديانـات المختلفـة. . ويحتاج المسلمون وغير المسلمين إلى توضيح الفرق بين معارضـة الإسـلام فـى ذاتـه عن خوف أو كراهية، وبين النقد المنطقى الذى يعبر عـن الاختـلاف فـى الـرأى، بحيث لا تكون كل الانتقادات الموجهة للإسلام صادرة بـالضرورة عـن كراهيـة أو عـداء. . وإن كـانت ظـاهرة «الإسـلاموفوبيا» فـى بريطانيـا تتـأثر بالاتجاهـات والأحداث فى مناطق أخرى، كما أن الموقف من الإسـلام والمسـلمين فـى بريطانيـا يؤثر فى مناطق أخرى، فإن البريطانيين فى حاجة إلى الوعـى بـالبعد الـدولى فـى الموضوع، ولكن ذلك ليس عذرا لعدم معالجة هذه الظاهرة داخل بريطانيا بجدية .

وفى ختام التقرير يقدم عددًا من التساؤلات. يقـول إنـها للمزيـد مـن المناقشـة وإثارة الاهتمام بالقضية، ويعلن أن لجنة «رونيميدى تراست» الخاصة بالمسـلمين البريطانيين والإسلاموفوبيا ترحب بتلقى الآراء والاقتراحات بشأن هذه القضية ، وبخاصة فى الموضوعات الآتية :

- القانون الحالى الخاص بتجريم التفرقة فى المعاملة، وهل يحتاج الأمر إلى قانون جديد للنص على تحريم التفرقة فى المعاملة فـى بريطانيـا علـى أسـاس الديـن واعتبار ذلك مخالفة قانونية يتعرض من يرتكبها للعقوبة ؟!
- هل يجب أن يكون فى بريطانيا قانون آخر لمنع التحريض على كراهية الأديـان وأصحابها وفرض عقوبات على ذلك ؟!
- ما هى الإجـراءات التـى يجـب اتخاذهـا لضمـان إعطـاء المسـلمين البريطـانيين الفرصة للقيام بدورهم كاملا فى الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية ؟
- هل مطلوب سياسات جديدة فى نظام التعليم الحالى فى بريطانيا ؟!
- هل يجب توجيه الإعلام البريطانى فيمـا تجـب مراعاتـه عنـد تناول القضايـا الحساسة ومناقشتها مثل قضية «الإسلاموفوبيا» ؟! وإذا كـان ذلـك لازمـا فما الذى يجب أن يتضمنه هذا التوجيه، ومن الذى يقوم به ؟

- هل يجب توجيه أصحاب الأعمال بعدم التصرف مع العاملين لديهم، وعدم معاملة طالبى الوظائف المسلمين بروح «الاسلاموفوبيا»؟ ومن الذى يمكن أن يقوم بهذا التوجيه ليكون فعالا ويحقق النتائج المطلوبة منه؟
- ما هى المسئوليات التى يجب أن يقوم بها قادة الرأى العام فى المجتمعات غير المسلمة ؟

وهل للقادة وأصحاب الرأى داخل مجتمعات المسلمين دور أو مسئولية فى الحد من «الإسلاموفوبيا» ؟

وأخيرا ما هى الإجراءات العملية المطلوبة لبناء الثقة فى داخل المجتمع البريطانى وفى السياسة الخارجية البريطانية ؟

هذا ما يقوله تقرير لجنة من كبار المفكرين وأساتذة الجامعات البريطانيين يرأسها البروفيسور جوردون كونواى نائب المستشار لجامعة ساسكس Sussex وأعضاؤها هم : القس ريتشارد شارتز أسقف لندن حتى ديسمبر ١٩٩٦ ، وأيان هارجريفز رئيس تحرير صحيفة «نيوستاتسمان»، والدكتور فيليب لويس مستشار شئون الأديان لأسقفية برادفور ، وتريفور فيليبس رئيس لجنة رونيميدى تراست ، والدكتور سيبستيان بولتر أستاذ القانون بجامعة سوث هامبتون، والسيدة أوشا برشا من هيئة الخدمة المدنية ، والدكتور ريتشارد ستون رئيس المجلس اليهودى لمنع التفرقة العنصرية ، والقس جون فيبر مستشار أسقف ستيبنى حتى ديسمبر ١٩٩٦ ، ومع هؤلاء عدد من كبار الأساتذة المسلمين البريطانيين .

لم أ قل كلمة من عندى. . لأن التقرير فى ذاته وثيقة مهمة. . ووجود هذه اللجنة مهم فى ذاته. . وصدور هذا التقرير أهم. . وإن كان شهادة على وجود الشعور بالعداء والكراهية للإسلام والمسلمين فى بريطانيا.. فإنه فى نفس الوقت شهادة للديمقراطية البريطانية التى تسمح بالاعتراف بهذا الخلل والاعتداء على مبادئ الديمقراطية البريطانية بكل هذه الصراحة. . وبكل هذا الوضوح. .

وفى الصحافة البريطانية انتقادات للمدارس الإسلامية مرة بالقول بأنها تمنع تخصيص حصة للموسيقى لأن الطالبات المسلمات يرفضن ارتداء ملابس الرقص،

ومرة بالقول بأن هذه المدارس تدرس نظرية دارون عن التطور وتشكك فيها بينما يدرسها التلاميذ البريطانيون على أنها صحيحة وعليها أدلة تثبت صحتها، ومرة لأن هذه المدارس ترفض تدريس الجنس لأن المسلمين يرفضون الحديث عن كل ما يتصل بالجنس والتناسل.

واذكر أنى قابلت مرة مسئولا فى وزارة التعليم البريطانى وأراد أن يثبت لى أن الوزارة تحترم الدين الإسلامى فقال: إنهم إذا وجدوا عددا مناسبا من التلاميذ المسلمين فإنهم يدرسون لهم الدين الإسلامى فى حصة «الدين» وعندما لا يجدون إماما من أئمة المساجد فإنهم يعهدون إلى أحد رجال الدين المسيحى أو اليهودى بتدريس الإسلام للطلبة المسلمين. . باعتبار أنهم ما داموا رجال دين فإنهم قادرون على تدريس أى دين !

ولم أدهش، لأن لانتوس عضو الكونجرس الأمريكى اليهودى هو الذى يشرح الدين الإسلامى لأعضاء الكونجرس. . والنتيجة معروفة طبعا !

بعد انتهاء معاداة السامية
بدأت معاداة الإسلام !

انتهت فى الغرب موجة العداء للسامية ، أو كادت تنتهى، وبدأت حملة العداء للإسلام والمسلمين أقوى وأشد تأثيرا ، إلى الحد الذى يرى فيه البعض أنها الخلفية الحقيقية للحرب التى تقودها أمريكا بأحدث اسلحتها على بعض البلاد الإسلامية والحروب القادمة التى ستوجه إلى بلاد إسلامية أخرى ، بالإضافة إلى أن الحصار الاقتصادى المفروض على بعض الدول الإسلامية ليس مفروضا على أية دولة غير إسلامية فى العالم. . وتظهر حملة العداء للإسلام فى المضايقات التى يواجهها المسلمون الذين يعيشون فى الغرب أو يذهبون للزيارة. . وتزداد فلتات اللسان من أمثال برلسكونى رئيس وزراء إيطاليا عن حضارة الإسلام الكريهة إلى الرئيس الأمريكى جورج بوش الذى أعلن «الحرب الصليبية» . .

وفى بحث أجراه مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية عن الظروف التى يعيش فيها المسلمون فى أمريكا فى يوليو وأغسطس ٢٠٠٢ تبين أن ٥٧٪ من المسلمين فى أمريكا تعرضوا للتمييز العنصرى والاضطهاد بعد أحداث ١١ سبتمبر، و ٤٨٪ تحولت حياتهم إلى الأسوأ ، و ٦٧٪ قالوا إن التحيز ضد الإسلام زاد فى الصحافة والتليفزيون فى أمريكا . وهذا البحث شارك فيه المسلمون الذين يعيشون فى٤٠ ولاية من الولايات المتحدة .

وفى شهر أغسطس ٢٠٠٢ دارت معركة فى الولايات المتحدة لأن جامعة نورث كارولينا الأمريكية اختارت ضمن كتب القراءة الصيفية كتابا عن الإسلام والقرآن من تأليف البروفيسور مايكل سيلس أستاذ علم الأديان المقارن بجامعة هارفارد وعنوانه «منهج القرآن: الوحى الأول»، واجتمعت لجنة فى برلمان ولاية نورث كارولينا وطالبت بوقف تمويل الجامعة بسبب اختيار هذا الكتاب . ورفعت إحدى الجمعيات المسيحية الأمريكية المحافظة دعوى أمام إحدى المحاكم ضد

الجامعة على أساس أنها تروج لدين «الأعداء» ، وتعرضت الجامعة لحملة من الانتقادات بسبب موافقتها على اختيار هذا الكتاب . ولم تتوقف الحملة حتى بعد أن تراجعت الجامعة ، وقررت جعل دراسة هذا الكتاب اختيارية على أن يقوم الطالب الذى يرفض قراءته بكتابة مقال يوضح فيه أسباب الرفض . ولم يجد مستشار الجامعة البروفيسور جيمس موسير اقتناعا من المعارضين بما أعلنه من أن اختيار الدين الإسلامى لتدريسه جاء استجابة لتزايد الاهتمام بدراسة هذا الدين بعد هجمات ١١ سبتمبر، وأن الدين الإسلامى هو الأكثر إثارة لاهتمام الأمريكيين، ولم يستمع أحد إلى إعلان بعض أساتذة الجامعة أن معارضة تدريس الإسلام يمثل اعتداء على الحرية الأكاديمية للجامعة. وأخيرًا اعترف أستاذ الدراسات الدينية بجامعة نورث كارولينا البروفيسور كارل أرنست بأن هناك تيارا قويا متحيزا ضد الإسلام، وأن هذا الموقف جزء من تاريخ طويل من العداء للإسلام، ومن السهل اقتطاع أجزاء من أى كتاب مقدس للإساءة إليه وتشويه مقاصده .

وحاول البروفيسور مايكل سيلس أن يعوم ضد التيار فكتب مقالا فى صحيفة «واشنطن بوست» الأمريكية يوم ٩ أغسطس ٢٠٠٢ ونشرته صحيفة هيرالد تريبيون فى نفس اليوم، بعنوان «الكتب المقدسة لا تؤخذ باستهتار»، أشار فيه إلى الدعوى المرفوعة أمام المحكمة ضد جامعة نورث كارولينا بسبب موافقتها على اختيار كتابه «منهج القرآن» ليكون ضمن كتب القراءة الصيفية لطلبة السنة الأولى، والتهمة الموجهة إلى الجامعة أنها تلقن الطلبة معلومات حول طبيعة الإسلام السلمية وهذه ادعاءات خاطئة، والجامعة بذلك تنتهك القانون والدستور الأمريكى بالفصل بين الدين والسياسة، وقال البروفيسور مايكل سيلس فى مقاله : إن كتابه هذا لا يتضمن أية ادعاءات أو دعايات عن الإسلام، وحاول الأستاذ أن يدافع عن نفسه قبل أن تلاحقه المنظمات المعادية للإسلام وتقضى على مستقبله الأكاديمى وربما تقضى على حياته، فقال فى مقاله : إن البعض يساوى بين فهم القرآن والتراخى فى محاربة الإرهاب الإسلامى ، وقال – لكى ينفى عن نفسه تهمة التحيز للإسلام –: إنه سبق أن ناشد الحكومة الأمريكية قبل ١١ سبتمبر الإطاحة بنظام طالبان الإجرامى، وسبق أن حذر من الخطر الذى يشكله المذهب الإسلامى المتطرف .

وبعد ذلك قال البروفيسورمايكل سيلس فى مقالـه إن وراء هـذه القضيـة ادعـاء تبشيريا قديما بأن الإسلام دين عنف بعكس المسيحية فهى دين السـلام ، ولذلـك يختصم المتقاضون القرآن نيابة عن الكتاب المقدس، وهم يستشهدون أمام المحكمة بآيات من القرآن تدعو المسلمين إلى قتل الكفار، بينما يفسر معظم المسـلمين هـذه الآيات فى سياق الحرب بين محمد واتباعـه من جانب وأعدائهم فى ذلـك الوقـت مـن جـانب آخـر، ولا تنطبـق هـذه الدعـوة للمسـلمين الآن إلى قتـل أصـدقائهم وجيرانهم من غير المسلمين. وكما يعتبر المسيحيون واليهود أنفسهم مأمورين مـن الله فى الكتاب المقدس - مثل يسـوع - بنبـذ الملحديـن. وكمـا أن بعـض المسـيحيين يعتبرون أنفسهم «يسوع الجديد» كذلك يتصور بعض المسـلمين أن مـن يـهاجمون الإسلام الآن مثل هؤلاء الذين هاجموا محمدا وأتباعه ويدعون إلى الجهاد ضدهـم، وهؤلاء قلة تمكن معرفتهم، وتحديدهم ، ومواجهتهم ، على أن نتجنب افـتراض أن كل المسلمين يفسرون القرآن بنفس الطريقة .

وقال البروفيسور مايكل سيلس أيضا فى مقاله: إن بعض المسيحيين يتفـاخرون بأن المسيح لم يأمر اتباعه أبـدا بقتـل الملحديـن، ولكـن أمـر أن يـتركوا الحسـاب والعقاب فى الآخرة ، ولكن الكتب المقدسة تتصل بـالعنف بطـرق معقـدة، ففـى أيـام محـاكم التفتيـش الكاثوليكيـة كـانت تحكـم بـالإعدام علـى مـن تعتـبرهم «هراطقة» وظلت تحاكم وتقتل خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وفـى هذا الزمن كان قتل المتهم بالهرطقة يعتبر فى نظرهم أكثر رحمة من السـماح لـه بالتأثير على الآخرين وقيادتهم إلى التهلكة، وكانت«الرحمة» هى الحجـة التـى استخدمت لتـبرير اضطـهاد اليـهود . وكذلـك الحـال الآن ، فـإن طالبـان قـرءوا القرآن، وكذلك فإن المسـلمين الذيـن اضطهدتـهم طالبـان وحكمـت عليـهم بـالكفر (وهى التهمة المساوية للهرطقة فى المسيحية) قـرءوا القرآن نفسه . والآيات التى ألهمت غاندى ثورته السلمية (وهو ليس مسلما) هى ذاتها الآيات التى يستشـهد بها هؤلاء الذين ذبحوا المسلمين غير المسـلحين فـى الهنـد مؤخـرا . وأيضـا يـردد المتحدثون فى «شبكة السياسة العائليـة» كمـا يـردد بـات روبرتسـون آيـات مـن القرآن معزولة عن سياقها لإثبات وجهة نظرهـم بأن القرآن يطالب المسلمين بقتل «الملحدين» ، وبالنسبة لهم فـإن «الإسـلام هـو العـدو» بكـل وضـوح ، وبعـد ذلـك

يقولون : كيف لنا أن نثق فى جارنا وزميلنا المسلم إذا كنا نعرف أنه ربما يكون وراء ما يظهره من صداقة نية للقتل ؟!

ويتساءل البروفيسور مايكل سيلس فى مقاله: هل نسمح بدخول المسلمين فى جهاز الشرطة أو فى الجيش ؟ وإذا لم يكن ممكنا التعرف على المسلم باسمه أو بمظهره فهل نطلب منه وضع علامة تميزه حتى نتعرف عليه ؟ وقد أدت مثل هذه الأفكار الطائشة عن الإسلام ببعض المسيحيين فى البوسنة إلى مهاجمة جيرانهم المسلمين العزل ، ومع ذلك فإن الكثير من هؤلاء المسلمين أنفسهم حملوا الشموع تضامنا مع المسيحيين بعد هجمات ١١ سبتمبر على نيويورك وواشنطن .

وقال البروفيسور مايكل سيلس إن كتابه «منهج القرآن» ، يقدم السور والآيات التى يعتبرها المسلمون «المبادئ الأساسية للدين الإسلامى».

وفى نفس الوقت فإن الطلبة الذين يقرءون هذا الكتاب عن القرآن والإسلام يقرءون أجزاء من الكتاب المقدس تشمل روايات الذبح البشعة فى Joshua فهل مثل هذه الاختيارات تقدم وجهة نظر معتدلة عن الكتاب المقدس ؟ لذلك لا يجب اللجوء إلى تجزئة الكتب المقدسة وانتقاء آيات معينة وإخراجها من سياقها لإقامة أدلة وتعميم ادعاءات بشأن الدين والكتاب المقدس فى عمومة . وإذا كان جو جلوفر من شبكة السياسة العائلية التليفزيونية والإذاعية ينتقد محاولات تعريف الأمريكيين بجوهر الأفكار اللاهوتية فى القرآن، ويطالب بالتركيز على شىء واحد، هو «الإسلام والإرهاب» وهو الموضوع السائد فعلاً على أرفف المكتبات فكيف يمكن فهم الإسلام بدون دراسته وكيف يمكن التعايش سلميا مع المسلمين بدون فهم عقائدهم .

هذا ما قاله الأستاذ الأمريكى المتخصص فى علم الأديان المقارن وهو يواجه حملة من الانتقادات والتهديدات لمجرد أنه وضع كتابا ليس فيه دفاع عن الإسلام ، وليس فيه دعوة إلى اعتناق الإسلام ، وليس فيه سوى محاولة فهم «العقيدة» الإسلامية بعيدا عن حملات التشويه وبرامج الدعاية المنظمة لتشويه الإسلام فى الإعلام الأمريكى وفى المدارس والجامعات أيضا .

ومن الكتب المهمة التى صدرت فى فرنسا كتاب بعنوان «فرنسا والإسلام» لباحث معروف هو «جاك فريمو»، استعرض فيه تطور علاقة فرنسا بالإسلام

والعالم الإسلامى منذ حملة نابليون على مصر التى كانت بداية عهد الاستعمار الأوربى للعالم العربى والإسلامى حتى العصر الحديث، كما استعرض الغزوات والحروب والصراعات التى شنها الغرب على الدول الإسلامية ، وأوضح أن هذه الصراعات اختلطت فيها الروح المسيحية المتحكمة فى الغرب وعقله مع النزعات العنصرية الغربية وطموحات الهيمنة الإمبراطورية . وقال: إن غزو نابليون لمصر أظهر الفارق بين «التقدم» الأوربى و «التخلف» العربى والإسلامى ، مما فتح شهية الدول الاستعمارية الأوربية لإقامة إمبراطوريات فيما وراء البحار ، وزيادة حدة المنافسة بين هذه الدول الاستعمارية على الممتلكات التى لم يكن أهلها قادرين على حمايتها بعد أن أصبحت الإمبراطورية العثمانية «الرجل المريض» وظهرت المسألة الشرقية فى الفكر السياسى الغربى .

ويقول الكتاب: إن احتلال فرنسا للجزائر فى عهد نابليون الثالث نقل المشروع الاستعمارى الغربى إلى مرحلة جديدة أكثر دموية وعنفا لامتلاك الأرض وإبادة السكان الأصليين، وواكب ذلك نزعة عنصرية كانت هى الغطاء الأيديولوجى لتبرير الأطماع الاستعمارية، واكتمل المشروع الاستعمارى الغربى مع الحرب العالمية الأولى والتواطؤ الفرنسى البريطانى فى اتفاقية «سايكس - بيكو» ثم «وعد بلفور» واقتسام العالم العربى بين الدول المنتصرة فى الحرب، واغتنام الدول الغربية الفرصة لإقامة دولة إسرائيل لتكون «اليد الطولى للغرب» لقمع المشروع العربى للوحدة، والتحرر، والتقدم.. ويقدم الكتاب تحليلا لعوامل الصراع بين الغرب الاستعمارى والعالم العربى الإسلامى على امتداد قرنين، منذ ولادة المشروع الاستعمارى الفرنسى على يد نابليون بونابرت حتى الوقت الراهن ويقول: إن طموحات الدول الغربية الاستعمارية تجددت فى الوقت الحاضر ، ويرى أن فرنسا ضمن هذه الدول فى حكم فرنسوا ميتران . - إن الاستعمار الفرنسى بدأ عندما كانت البلاد العربية والإسلامية تبدو أمام الغرب مساحات شاسعة تعانى من الفراغ والتخلخل السكانى ، وكانت فرنسا أكبر قوة سكانية فى أوربا ، فيها ٣٠ مليون نسمة فى مساحة لا تزيد على نصف مليون كيلومتر مربع ، بينما كان المسلمون فى دول الشرق الأوسط لا يزيدون على ٢٠ مليون نسمة مبعثرين فى مساحة تزيد على ٥ أمثال مساحة فرنسا، وتحصدهم الأوبئة ونقص

الرعاية الصحية ، بينما تجد شعوب الغرب الحماية بالنظام الصحى السائد فيها. والدول الغربية دول صناعية متقدمة علميا وتكنولوجيا بينما الدول الإسلامية دول زراعية متخلفة. ولم تصل حركة الأفكار فى العالم الإسلامى إلى ما وصلت إليه فلسفة التنوير فى الغرب ، وباختصار لم تكن الشروط اللازمة لنشأة اقتصاد رأسمالى ومجتمع صناعى متوافرة فى العالم الإسلامى ، بينما كانت للدين مكانة مركزية ومرجعية للدولة، والقانون ، والأسرة. . وكان لرجال الدين الكلمة العليا والأثر الأكبر فى حياة الناس ابتداء من طقوس الولادة والموت إلى سلوك الناس ومعاملاتهم فى الحياة اليومية. وأصبح للدولة دين.. وكانت فرنسا فى ذلك الوقت هى الابنة الكبرى للكنيسة، وملكها مسيحى متشدد يرى أن له رسالة وعليه واجب هو نشر المسيحية الكاثوليكية ، وكان الملوك المسلمون أيضا هم المدافعين عن الدين، وهذا التماثل هو الذى كان يغذى التباعد ، بل كان يغذى «العداء». ويقول المؤلف: نادرا ما كان يشعر المؤمنون هنا وهناك باحترام «الآخر». . بينما الإسلام فى نظر الكاثوليك ليس إلا «هرطقة» فى أحسن الأحوال. .

ويضاف إلى كل ذلك - كما يقول جاك فريمو - كان الاختلاف فى كل شىء بين الغرب والمسلمين. . فى الغرب يتكلمون اللاتينية والأنجلوساكسونية ، وفى العالم العربى والإسلامى يتكلمون العربية. . وفى الغرب يحسبون الزمن بالتقويم الميلادى وفى العالم الإسلامى يحسبونه بالتقويم الهجرى.. بالاضافة إلى اختلاف الملبس. . والمنوعات من الطعام. . واختلاف حول الاختلاط بين الرجال والنساء ومشاركة المرأة فى المجتمع. . ويقول: إن كل ذلك جعل الأمر يبدو كأن الغرب المسيحى والشرق الإسلامى ينتمى كل منهما إلى كوكب مختلف عن الآخر. . وزاد التباعد اختلاف القيم، والعادات، والسلالات ، وتكوين العائلة والعلاقات بين أفرادها، والمفاهيم الاقتصادية والثقافية والحركات الفكرية والأزياء. . كل ذلك كان يجعل الفرنسيين أقرب إلى جيرانهم الأوربيين، وبعيدين عن الشعوب الإسلامية، وكانت أيديولوجيات الكفاح فى العالم الإسلامى ضد الاستعمار الغربى تقوى هذا الشعور بالتباعد. . كما كان الجهاد من جهة، وآثار الحروب الصليبية من جهة أخرى ضمن جذور «العداء» السائد فى الغرب تجاه الإسلام ، حتى لو لم يكن ذلك ظاهرا كل الوقت لكنه كان يظهر من وقت لآخر. . وكان السباق من

أجل السيطرة على البحر المتوسط فى القرن الثامن عشر يطيل أمد هذا الشعور بالعداء والبعد.. وهكذا نجد أن التعارض بين العالم المسيحى و «دار الإسلام» ليس ادعاء فارغا !

هذا ما يقوله الباحث الفرنسى ويضيف أن هذه الاعتبارات يجب أن تكون نقطة البدء للبحث وفهم العلاقة بين الغرب والإسلام .

وبعد استعراض طويل للتطور التاريخى لعلاقة فرنسا بالعالم الإسلامى، ومراحل الصدام مع الإسلام والمسلمين بعد احتلال فرنسا للجزائر ، يشرح جاك فريمو نتائج المؤتمر القربانى المسيحى الذى عقد فى قرطاجة، وبعده صدر قرار الفاتيكان فى سنة ١٩٢٢ بنقل مقر «مؤسسة نشر الأديان» من ليون بفرنسا إلى العاصمة الإيطالية روما وتوجيه البعثات التبشيرية إلى العمل على «توسيع مملكة المسيح» ، وظلت النقطة الساخنة دائما هى مصر، فقد استمر فيها الاضطراب ومقاومة الاحتلال البريطانى، ثم ظهرت نقطة ساخنة ثانية فى فلسطين وأصبحت مسرحا لاضطرابات دامية ، وفى نهاية ١٩٣١ عقد فى القدس المؤتمر العالمى للإسلام وكان موضوعه النضال ضد الاستعمار وحماية الأماكن الإسلامية المقدسة، وكان شكيب أرسلان قد أصدر مجلة «الأمة العربية» بالفرنسية فى جنيف فى نهاية سنة ١٩٣٠، وجعل منها آلة حرب. . ثم ظهرت مؤلفات عبد الرحمن عزام «العرب شعب المستقبل» تبشر بالوحدة العربية ، وكان عبد الرحمن عزام يحارب الإيطاليين فى ليبيا قبل أن يناضل ضد الاستعمار البريطانى فى مصر، وأصبح بعد ذلك أول أمين عام للجامعة العربية عند إنشائها. . بعد ذلك انتشرت أفكار الإصلاح الإسلامى المستلهمة من الشيخ محمد عبده ثم رشيد رضا من بعده، ووصلت أفكار الإصلاح الإسلامى إلى المغرب والجزائر على يد عبد الحميد باديس، وركز «الإصلاحيون» على مسألة «الهوية القومية» القائمة على الدين الإسلامى واللغة العربية.. وظهر فى المغرب علال الفاسى الذى بدأ العمل السياسى فى هذا الاتجاه. . وفى سنة ١٩٣٠ وقعت الاضطرابات فى المغرب حين أصدرت سلطات الاحتلال الفرنسى قرارا بإنشاء محكمة تطبق القوانين الفرنسية فى المغرب ، ونشط رجال الدين الكاثوليك فى مناطق البربر ، وظهرت حالات اعتناق المسيحية ، وظهرت معها الحساسية الدينية كما ظهرت جماعة

«القوميون المغاربة» فى المغرب ، وقبلها ظهرت جماعة «تونس الفتاة» فى تونس ، وكلتاهما عملتا بقوة على تعبئة الشعور القومى والدينى ، وازداد تدفق الجماهير على المساجد فى المغرب وأصبح يتردد بصوت عال الصياح بدعاء «اللطف يا لطيف. . يا لطيف» ومرت سنوات الغليان الشعبى فى المغرب وتونس ضد الاستعمار الفرنسى ، وازدادت المقاومة مع ازدياد سياسة القمع وفرض الرقابة على رجال الدين الإسلامى. . وتوثقت العلاقة بين الدين الإسلامى ومقاومة الاستعمار فى البلاد الإسلامية. . ولم تفلح محاولات فرنسا لفرض الوصاية والسيطرة على شيوخ المسلمين حتى عندما أنشأت فرنسا لجنة خاصة يرأسها موظف فرنسى يتبعه الشيوخ وعلماء المسلمين، كما لم تفلح سياسة فرنسا فى فرض الرقابة على الصحف، والتضييق على المدارس الإسلامية .

يقول جاك فريمو: إن الحال ازداد سوءا بعد إنشاء إسرائيل وهزيمة الجيوش العربية وطرد ٨٠٠ ألف فلسطينى ، وتسبب كل ذلك فى صدمة نفسية دائمة للرأى العام العربى. . ثم توترت العلاقات بين مصر وفرنسا بسبب دعم عبد الناصر لثورة الجزائر وتنمية الشعور بالتضامن العربى ، وزاد التوتر فى العلاقات بعد اشتراك فرنسا وبريطانيا مع إسرائيل فى العدوان على مصر بعد تأميم قناة السويس سنة ١٩٥٦. وهكذا فشلت فرنسا فى جعل الجزائر فرنسية ، واشتد النضال الجزائرى ضد الاستعمار الفرنسى وارتبط بالإسلام ، وظهرت عمليات التفجير فى فرنسا التى تنفذها منظمة الجيش السرى ، وأدى ذلك إلى وجود مناخ الحرب الأهلية فى فرنسا ، واجتاحت باريس المظاهرات فى فبراير ١٩٦٢. . وأدت كل هذه العوامل إلى اتفاقيات «ايفيان» مع الحكومة الجزائرية المؤقتة ثم إعلان استقلال الجزائر. .

وبعد انتهاء حرب استقلال الجزائر خفت حدة التوتر بين فرنسا والعالم العربى والإسلامى وأصبح التقارب ممكنا .

أما علاقات فرنسا بإسرائيل فى فترة حكم ديجول فكانت قوية، وفى نفس الوقت ظلت فرنسا هى المصدر الأكبر لتسليح إسرائيل بأحدث طائرات الميراج التى كانت سلاح إسرائيل فى حرب يونيو ٦٧ ، وإن كانت فرنسا قد أدانت هذا العدوان وفرضت بسببه حظرا على تصدير الطائرات إلى إسرائيل. وذهب ديجول

إلى أبعد من ذلك فى مؤتمر صحفى عقده يوم ٢٧ نوفمبر ٦٧ وأعلن فيه شكوكه فى مشروعية إقامة دولة عربية ويهودية فى فلسطين ، ولكنه فى نفس الوقت وصف اليهود بأنهم «شعب الصفوة». . شعب واثق من نفسه وميَال للهيمنة. . وعندما قامت فرق الكوماندوز الإسرائيلية المحمولة بطائرات الهيلوكوبتر بغارة فى ديسمبر ٦٨ على مطار بيروت ودمرت الطائرات المدنية اللبنانية وأعلنت إسرائيل أن هذه الغارة انتقام لمهاجمة الفدائيين الفلسطينيين إحدى طائرات شركة العال الإسرائيلية فى مطار أثينا.. أعلن ديجول إدانته لهذا الهجوم الإسرائيلى على «بلد صديق» بأسلحة فرنسية !

الفكرة التى يستخلصها جاك فريمو هى أن فرنسا من خلال حرب الاستقلال فى الجزائر وظهور الدعوة للقومية اكتشفت أن الإسلام هو المحرك ، وأول نداء أشعل ثورة الجزائر فى نوفمبر ١٩٥٤ كان يدعو لمقاومة الاحتلال لإقامة دول جزائرية مستقلة ديمقراطية فى إطار المبادئ الإسلامية ، وكانت حركة «العلماء» من رجال الدين الإسلامى هى الدعم الأكبر لهذه الثورة ضد الاستعمار الفرنسى .

بعد ذلك يتساءل : متى ظهر فى فرنسا الشعور «بالخطر الإسلامى» ، ويجيب: بأنه ظهر فى نهاية ١٩٧٩ حين أصبحت الثورة الإيرانية راديكالية واحتجزت الرهائن داخل مبنى السفارة الأمريكية فى طهران فى نوفمبر ١٩٧٩ وبعد حدوث التمرد فى الحرم فى مكة ، وبعد أن اندلعت الحرب بين العراق وإيران فى سبتمبر ١٩٨٠ ، ثم اغتيال السادات فى ١٩٨١. . كل ذلك أدى إلى انتشار مفاهيم وشعارات فى الغرب عن «التعصب الإسلامى»و «الجهاد» ، وعانى الغرب من نقص البترول بسبب الحرب العراقية الإيرانية ، وانتشار حوادث إرهابية فى فرنسا، ومحاولة «أنيس نقاش» اغتيال رئيس الوزراء الإيرانى السابق شهبور بختيار فى باريس فى يوليو ١٩٨٠ ، وإلقاء قنبلة على الكنيست الإسرائيلى فى أكتوبر ١٩٨٠ ، واغتيال سفير فرنسا فى بيروت فى سبتمبر ١٩٨١ ، وتفجير قنبلة فى قطار باريس - تولوز فى مارس ١٩٨٢، وتراشق بالرصاص فى شارع روزييه بباريس فى سبتمبر ١٩٨٢ ثم إعلان رئيس الوزراء بيير موروا أن العمال فى شركة رينو للسيارات الذين قاموا باضطرابات كانت تحركهم جماعات دينية وكان يقصد جماعات إسلامية. وفى ربيع ١٩٨٥ خطف

العديد من الجنود الفرنسيين واحتجزوا كرهائن فـي لبنـان. وبـين نهايـة ١٩٨٥ وخريف١٩٨٦ حدثت عدة تفجيرات بالقنابل فى الأماكن العامـة وأثـارت الذعـر في كل باريس .

ويصل جاك فريمو إلى أن نتيجة هذه الأحداث أن أصبح الفرنسيون يشعرون بأن المسلم يمكن أن يهدد أمنهم على أرضـهم وفـى عقـر دارهـم كمـا يقولـون، وليـس كما كان عليه الحال حتى عام ١٩٦٢. عندما كان الخطر الإسلامى قائمًا فى المناطق البعيدة فيمـا وراء البحار، أو فى الشرق المعقد كما كان يصفه ديجول. لذلك كانت فرنسا حريصة على ألا تنتصـر إيـران علـى العـراق حتـى لا يكـون ذلـك انتصـارا للإسلام الراديكالى .

تاريخ طويل من العلاقات المعقدة المليئة بالصراعـات. وهـى صراعـات سياسـية في حقيقتهـا. . وهذا ما كـان يجعـل جلادسـتون -الاسـتعمارى البريطـانى زعيـم الأحـرار الـذى توفـى عـام ١٨٩٨- يدعـو إلى إعـدام القـرآن، وتطـهير أوربـا من المسلمين، وهذا أيضا ما جعـل القـائد البريطـانى اللـورد اللنبـى عندمـا دخـل القدس بعـد انتصـاره علـى العثمـانيين فـى الحـرب العالميـة الأولى يصيـح: «الآن انتهت الحرب الصليبية» .

هل أصبح الإسلام (عدوًا) فى أمريكا و (مشكلة) فى أوربا ؟

فى واشنطن تجمع ٣٠ ألف أمريكى مسلم - ممن عانوا من المضايقات بعد الهجمات على نيويورك وواشنطن فى ١١ سبتمبر- بمناسبة مرور عام على الحادثة. بدأ مؤتمر الأمريكيين المسلمين يوم ٣١ أغسطس ٢٠٠٢ واستمر أربعة أيام، وقال رئيس الجمعية الإسلامية فى أمريكا الشمالية التى نظمت المؤتمر: إن هذا بلدنا ، ونحن نحرص على الخير لهذا البلد ولكل إنسان فيه، ولكننا نعانى من آثار ١١ سبتمبر على الحريات المدنية، وعلى الإسلام، وعلى الحياة السياسية فى الولايات المتحدة .

وقال أمين عام الجمعية سيد سعيد إن الجمعية تسعى جاهدة للتصدى للتشويه الذى يتعرض له الإسلام والمسلمون، وتعمل على إبراز الفرق بين الصورة الحقيقية للإسلام والصور المتطرفة منه، وقد فعلنا كل ما فى وسعنا لتوضيح أن الإسلام لا يدعو إلى التطرف، ولكن كثيرا من المسلمين فى أمريكا عانوا من أوقات صعبة، داهمت الشرطة عددا من الجمعيات الخيرية الإسلامية كما داهمت عددا كبيرا من المساجد.. وكان تعليق مراسل الإذاعة البريطانية فى واشنطن، إنه على الرغم من جهود المسلمين للحيلولة دون اعتبار دينهم دين «الشيطان» فإن الهجمات غيرت من صورة الإسلام، ولفترة من الوقت شعر المسلمون فى أمريكا بالخطر يتهددهم، ولا يزال كثير منهم حتى الآن يرون أن عليهم الدفاع عن أنفسهم من الاتهامات الموجهة إليهم وإلى الإسلام.. وأخيرا تجمع عدد كبير من أعضاء «التحالف لحماية الحرية السياسية» فى مسيرة كبيرة فى ميدان الحرية فى العاصمة الأمريكية.

هكذا، لم يجد المسلمون فى أمريكا وسيلة للتعبير عما يلاقونه من متاعب وتحيز ضدهم سوى عقد المؤتمرات والقيام بالمسيرات، ومع ذلك استمرت الحملة

على الإسلام والمسلمين ولم يشفع لهم احتفال المسلمين بذكرى هجمات سبتمبر وإقامة صلاة الغائب على أرواح الضحايا، وقد كشف استطلاع أجراه مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية أن ٥٧٪ من مسلمى أمريكا تعرضوا لممارسات عانوا فيها من العنصرية والتمييز، وأن ٨٧٪ يعرفون زملاء لهم تعرضوا لهذه الممارسات، و ٤٨٪ حياتهم تحولت إلى الأسوأ ، وأتهم ٦٧٪ وسائل الإعلام الأمريكية بأنها أصبحت أكثر عدائية للإسلام والمسلمين .

مجلة «الأيكونومست» البريطانية نشرت تقريرين فى عدد ١٠ أغسطس ٢٠٠٢ أولهما بعنوان «المسلمون فى أوربا» والثانى بعنوان «تقرير خاص: المسلمون فى أوربا الغربية» قالت فى التقرير الأول: إن العقود الأخيرة تحولت فيها مشاعر اللامبالاة تجاه الإسلام إلى مشاعر ازدراء، ثم إلى شعور بالشك، ثم تحولت مؤخرا إلى شعور بالعداء، واختلطت بهذا الاتجاه العام مشاعر الأمريكيين تجاه الشيوخ المسيطرين على البترول، و «الإرهابيين» الفلسطينيين، وآيات الله فى إيران، والهجرات الجماعية، ثم هجمات ١١ سبتمبر التى نفذها المسلمون المقيمون فى الغرب، بتأييد ومساندة من نظام حكم بغيض فى أفغانستان .

أكثر من ذلك قالت «الايكونومست» إن المسلمين وسط القلق المتزايد بسبب هجراتهم إلى الغرب أصبح عليهم مواجهة الاتهام بأن بعض الجوانب فى دينهم تتعارض بشكل أساسى مع قيم التحرر والديمقراطية فى الغرب، ففى بريطانيا مليون و ٣٠٠ ألف مسلم، وفى ألمانيا ٣ ملايين و٢٠٠ ألف، وفى فرنسا ٤ملايين و ٢٠٠ ألف، والإسلام أصبح أسرع الأديان نموا فى الولايات المتحدة، بل أصبح أسرع الأديان نموا فى العالم، وسيكون الأمر خطيرا إذا كان الإسلام يتعارض حقا مع قيم التحرر والديمقراطية.

وبعد التعبير عن مخاوف الغرب من العقيدة الإسلامية ومن زيادة أعداد المسلمين زيادة كبيرة حاولت «الايكونومست» أن تكون متوازنة، فقالت: إن قليلا من المسلمين هم الذين يؤمنون بأن السلطة الدينية لها الأولوية والسبق على قوانين البلاد التى يعيشون فيها، ومثلهم فى ذلك مثل بعض المسيحيين فى أمريكا والبلقان وأيرلندا الشمالية، ومثل بعض الهندوس على الرغم من أن الهند دولة ديمقراطية علمانية، ومثل بعض اليهود فى إسرائيل الديمقراطية! فهؤلاء

أيضا يفكرون بنفس الطريقة. . ولكن المسلمين فى عمومهم يعيشون فى المجتمعات الغربية ويجدون الفرص للتقدم، فمنهم أصحاب محلات، وأثرياء، وأطباء مشهورون، وفيهم أغاخان، ومعظمهم يعمل بجد ويتمسك بقيم الأسرة ولا يرتكب أية جرائم.. ومع ذلك فلن يجدى التظاهر بأن المسلمين لا يمثلون مشاكل فى الغرب، وهذه المشاكل من نوعين: النوع الأول مشاكل مرتبطة بجماعات إسلامية مهاجرة من مناطق ريفية فقيرة، ومعظمهم قليل المعرفة، وتعليمهم ضعيف، ولون البشرة الأسمر يسبب لهم متاعب من أبناء الغرب الذين يشعرون بالخوف من الأجانب، وعموما يعانى هؤلاء من التمييز العنصرى، وأحيانا يزداد الأمر سوءا بسبب حملات السياسيين العنصريين، وهؤلاء المهاجرون المسلمون لا يجيدون لغة البلاد التى يهاجرون إليها، ولذلك يجدون صعوبة فى الحصول على وظائف، ويصارع أطفالهم فى المدارس، ويتكدس هؤلاء المهاجرون المسلمون فى أحياء فقيرة، ويميلون إلى الانسحاب من المجتمعات التى يهاجرون إليها ليعيشوا فى عالمهم الخاص، وينشئوا مجتمعات مستقلة مقصورة عليهم ومكتفية ذاتيا، وهذه ليست الطريقة الصحيحة للتكيف مع المجتمع الأوسع.

وعلى الجانب الآخر فإن الحكومات فى الغرب لا تعترف بحقوق هؤلاء المسلمين المهاجرين ولا تساعدهم على الاندماج ليصبحوا مواطنين صالحين فى البلاد التى هاجروا للإقامة فيها. أمامهم العراقيل لمنحهم الجنسية، وحق الانتخاب، وغير ذلك من الحقوق التى يتمتع بها المواطنون فى الدول الغربية، وعلى سبيل المثال فإن ١٠٪ فقط من المسلمين فى ألمانيا هم الذين يتمتعون بحق التصويت، وفى فرنسا اعتقاد سائد بأن المهاجرين يجب عليهم أولا التخلى عن جميع الخصائص الثقافية لمجتمعاتهم الأصلية، والدول الغربية تسمح بقبول «استيعاب» المسلمين المهاجرين ولكنها تقاوم «اندماج» هؤلاء فى المجتمعات الغربية.. كيف يمكن وضع نهاية للتمييز العنصرى؟.. فى بريطانيا منظمة لمقاومة التمييز العنصرى وضمان المساواة عمرها الآن ٣٦ عاما، وليس فى ألمانيا وفرنسا جهة مثلها يمكن أن يلجأ إليها بالشكوى من يعانى من الاضطهاد من المسلمين.

تقول الايكونومست: إن المسلمين المهاجرين عليهم أيضا الاجتهاد للاندماج فى المجتمعات الغربية ، خاصة أن الدين الإسلامى يمثل صعوبات عند الغربيين . وهذا يقود إلى الحديث إلى النوع الثانى من المشاكل التى يعانى منها المسلمون فى الغرب وهى مشاكل ثقافية ، والمأزق الذى يواجه المسلمين هو الاختلاف بين القيم والمبادئ الإسلامية والقيم والمبادئ الغربية. . مثل تعدد الزوجات. . ومثل ذبح عشرات الآلاف من الأغنام فى عيد الأضحى مما يسبب إزعاجًا للفرنسيين. . والأكثر من ذلك أن بعض المسلمين المهاجرين يرون أن التزاماتهم بمبادئ الإسلام تتضمن العداء الصريح لمبادئ المجتمعات الغربية. . وكثيرا ما تحدث مشاجرات بسبب الذبح الشرعى واللحم الحلال واللحم الحرام. . وتجد الحكومات صعوبة فى التعامل مع المسلمين لأنهم ليست لهم سلطة دينية يمكن التعامل معها، وبالتالى لا تعرف الحكومات مع من تتكلم حين تريد التفاهم مع المسلمين لتحديد قواعد التعايش وحل المشاكل. . فالمسلمون فى أوربا جماعات متفرقة وبينها اختلافات فى الثقافات والمفاهيم الدينية وما يراه البعض حلالا يراه البعض الآخر حراما، وما يراه البعض من ضرورات الإيمان ومن مبادئ الإسلام الأساسية لا يراه الآخرون كذلك. . والمنازعات بين الجماعات والمجموعات الإسلامية دائمة.. وهم قادمون من دول مفهوم الديمقراطية فيها غير معروف، وبعضهم قادم من دول الحكومات فيها ليست مسئولة أمام الشعوب ولكنها مسئولة أمام الله وحده ولا يسألها أحد غيره عما تفعل ، وهذا أمر يثير الدهشة فى الغرب. . ووظيفة «المفتى» فى الدول الإسلامية غير واضحة، فما يصل إليه من آراء وفتاوى غير ملزم بل يجد معارضة من المتطرفين.. فليس هناك إسلام واحد أمام الغرب .

بعض العلماء المسلمين فى الغرب يدعون إلى تطوير المفاهيم والثقافة الإسلامية لتضييق الفجوة بينهم وبين الغربيين فى القيم والمفاهيم. . وبعضهم يدعو إلى الاندماج فى المجتمعات ولكن هناك أيضا من يظل ولاؤهم لبلادهم الأصلية ويظهرون الولاء الزائف للدول الغربية التى يعيشون فيها، وبعضهم يستمد أفكار التطرف والكراهية من بلادهم .

واضح من تقرير الايكونومست أن هناك شعورا بالقلق والخوف فى الغرب من الإسلام والمسلمين ، لأنهم لا يندمجون فى المجتمعات الغربية، والغرب لا يريد

منهم مجرد «التواجد» أو «التعايش» ولكن يريد منهم «الاندماج» أو «الذوبان» بحيث يصبحون غربيين لحما ودما. . يتحدثون بلغة البلاد التى يعيشون فيها فى الغرب. . أفكارهم غربية والقيم التى يعتنقونها قيم غربية. . وسلوكهم سلوك غربى. . ولا مانع من أن تكون ديانتهم الإسلام بشرط أن يكون «إسلاما غربيا». .

باختصار هناك مشكلة للمسلمين فى الغرب. . مشكلة يعانى منها المسلمون. . ويشكو منها الغربيون أيضا، ويرون أن وجود الإسلام ومبادئه تتعارض مع الحضارة والثقافة الغربية .

والتقرير الثانى فى مجلة الايكونومست بدأته بسؤال : هل فى الإسلام ما يجعل من المستحيل على المسلمين التكيف مع المجتمعات الغربية المتحررة. .؟

وأجابت عن سؤالها بأن دول أوربا اعتادت منذ عشرات السنين على استقبال مهاجرين من أنحاء العالم دون أن تشعر بالقلق، ولكن أوربا الآن تشعر بالقلق من المهاجرين المسلمين على وجه الخصوص .

وفى تحليل الايكونومست لأسباب القلق فى أوربا من المسلمين أن هجمات ١١ سبتمبر، وتبرير أسامة بن لادن للعنف بأنه تعبير عن روح الإسلام كانا من أسباب هذا القلق، ونبه الغرب إلى أن بعض دول العالم الإسلامى تعيش فى ظل نظم حكم ثيوقراطية، وتعانى فيها المرأة من الاضطهاد، ويطالب فيها المتشددون بقطع الأيدى والرجم بالحجارة حتى الموت كعقوبات على بعض الجرائم . ومما ضاعف القلق فى الغرب أن بعض من قاموا بالهجوم على برجى مركز التجارة العالمى فى نيويورك عاشوا لسنوات فى الغرب، ويشتد القلق أكثر بسبب وجود مجتمعات مغلقة من المسلمين المهاجرين داخل المجتمعات الغربية ومنفصلة عنها تقريبا ، وهذه المجتمعات المغلقة يتم فيها تلقين المهاجرين المسلمين وأبنائهم كراهية الغرب ، والتخطيط لخيانة الدول التى هاجروا إليها، ولا تدرى سلطات الدول التى تؤويهم بحقائق ما يجرى داخل هذه المجتمعات المغلقة، إلى أن جاءت الانتخابات الهولندية وفاز بيم فورتين فيها فوزا مذهلا بسبب حملته المعادية للهجرة، ولفت الأنظار أن الذين التفوا حوله واستجابوا لآرائه المعادية للإسلام والمسلمين لم يكونوا فقط من المتعصبين والعنصريين فى

هولندا ولكنهم كانوا من القاعدة الجماهيرية العريضة، وكانوا يؤيدونه فى قوله بأن الإسلام «دين بدائى متخلف» لا يتسامح مع الشذوذ الجنسى، ولا يعترف بحقوق المرأة، وكانت لهذه الحملة أصداء فيما وراء هولندا ، وظهرت فى تعليقات وزير خارجية ألمانيا الذى أعلن بعدها أنه أصبح من الضرورى اكتشاف مدى تعارض التعاليم الإسلامية مع القيم الغربية . أما المهاجرون المسلمون أنفسهم فقد تصاعدت شكواهم مما يعانونه من الفقر وصعوبة حصولهم على فرصة عمل أو سكن لائق، وحقيقة إن معظم المسلمين الباكستانيين هاجروا إلى بريطانيا على أمل أن تكون هجرة مؤقتة بحثا عن عمل ثم يعودوا إلى وطنهم الأصلى فى النهاية. . وكذلك ذهب المسلمون الأتراك إلى ألمانيا فى الستينات كعمال لفترة وتنتهى.. ومثلهم المسلمون من المغرب والجزائر وتونس ذهبوا إلى فرنسا وكانت لديهم أسباب مشابهة لترك أوطانهم ، وآمال مشابهة فى العودة، ولكنهم استقروا ولم يعودوا، وفى الوقت نفسه فشلوا فى إجادة الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية، وزادت أحوالهم سوءا عندما فقد معظمهم وظائفهم، ولم تعد أمامهم إلا فرص العمل فى أعمال الخدمة ، وحتى أطفالهم شب معظمهم على لغة وثقافة أهاليهم، ولذلك واجهوا الفشل فى المدارس. .

ويضاف إلى ذلك «الفجوة الحضارية الهائلة» بين الحياة فى قرى بنجلاديش وباكستان والحياة فى بريطانيا أو فرنسا، ثم إن هؤلاء جاءوا وليست لديهم مهارات ، ويعيشون فى الغرب بعقليات وأفكار وتقاليد تنتمى إلى النظم الإقطاعية التى ولدوا فيها ، وظلوا على انتمائهم لجماعة المهاجرين معهم من أبناء وطنهم، ولذلك يشعر البريطانيون بالدهشة حين يرون هؤلاء المسلمين المهاجرين وقد حصلوا على الجنسية البريطانية ، وأصبح لهم حق إعطاء أصواتهم فى الانتخابات البريطانية، ولكنهم يعطون أصواتهم معًا كأنهم فرد واحد، وفقا لما يمليه عليهم كبيرهم، وهكذا يعيشون فى الغرب بأجسامهم لا بأرواحهم، وبدلاً من أن يندمجوا فى الغرب فإنهم يستحضرون أساليب الحياة المتخلفة من بلادهم إلى الغرب، ولا يتزوجون من أبناء وبنات البلاد ولكن يتزوجون من رجال ونساء من بلادهم الأصلية ويحضرونهم للعيش فى هذه المجتمعات المغلقة المنفصلة تقريبا عن المجتمعات الغربية .

تقول الايكونومست: إن بريطانيا كانت أسرع من فرنسا وألمانيا فى السماح للمهاجرين من كل الديانات والجنسيات بالاحتفاظ بثقافاتهم وديناتهم وانتماءاتهم لأوطانهم الأصلية ، ولكن مجتمعات المسلمين بالذات تعيش فى عزلة فى الغرب وكأنها عالم منفصل .

وتقول أيضا: إن وضع المرأة فى مجتمعات المسلمين مسألة تثير الناس فى الغرب، وتثير التساؤل : هل هذا الوضع المتدنى للمرأة يرجع لأسباب تاريخية أو ثقافية فى المجتمعات الإسلامية أو أن هذا الوضع ناشئ عن طبيعة الدين الإسلامى وهو الذى يأمر بذلك. . ؟

وقد قال بيير بيديه الوزير الفرنسى يوما: إنه لاحظ أن المهاجرين المسلمين لا يتعايشون مع الفرنسيين، ولا يشاهدون حتى برامج التليفزيون الفرنسى، ولا يشاهدون سوى الفضائيات التى تبثها دول إسلامية ، وهذه الفضائيات لا تتحدث إلا عن المحنة التى يعيشها الفلسطينيون وتردد أن العرب هم الضحايا. وكثير من المهاجرين المسلمين تظهر المبالغة والتشدد فى الطقوس ومظاهر التقوى لتأكيد هويتهم كمسلمين وللتعبير عن هويتهم، وكأنهم يريدون أن يؤكدوا للغربيين أنهم فخورون بأصولهم ولا يخجلون منها ، ولذلك ينتشر الحجاب بين السيدات والفتيات فى هذه المجتمعات.. وبالتأكيد تؤذى بعض الممارسات الإسلامية مشاعر الأوربيين. . مثل ذبح عشرات الآلاف من الأغنام فى عيد الأضحى وهذا يصدم الفرنسيين.. وكذلك فإن طريقة دفن موتى المسلمين يرى الغربيون أنها تتعارض مع قواعد الصحة العامة، ولذلك يتم نقل موتى المسلمين الأتراك من ألمانيا بالطائرات لدفنهم فى بلادهم، لأن ألمانيا لا تسمح بالدفن بالطريقة الإسلامية ولذلك ليس فيها مقابر للمسلمين، أما فرنسا فليس فيها سوى مقبرة واحدة للمسلمين. . ومثل هذه الممارسات تزيد روابط المسلمين المهاجرين بأوطانهم الأصلية. . ويضاف إليها أن معظم دول أوربا ترفض منح الجنسية للمهاجرين، ويمتد هذا الرفض لأطفالهم الذين يولدون فى أوربا. . ولكن لا شىء يعمق هذه الروابط على نحو مثير للقلق أكثر من المنظمات الإسلامية الموجودة فى أوربا ، والمساجد التى يتجمع فيها المسلمون فى أوربا ، ففى ألمانيا – على سبيل المثال – أكبر منظمة للمهاجرين المسلمين هى

منظمة D. I. T. I. B وهى امتداد لوزارة الشئون الدينية فى الحكومة التركية، ومع أن تركيا دولة علمانية ومعادية للتعصب الدينى إلا أن هذه المنظمة لا تسهم فى تحقيق «الاندماج» فى المجتمع الألمانى، واهتمامها الأول هو تحقيق مصالح تركيا القومية، وتشجيع الأتراك فى ألمانيا على أن يظلوا أتراكاً، ولذلك فإن لهم صحافة وتليفزيونا باللغة التركية.. وفى ألمانيا ٣ ملايين و ٢٠٠ ألف تركى مسلم وفيها ١٩ جماعة إسلامية سياسية وأكبر هذه المنظمات منظمة «ميلى جورس» ذات الصلة بالحزب الإسلامى فى تركيا، وهى لا تحرض على العنف، ولكن أعضاءها البالغ عددهم ٢٧ ألفا و ٥٠٠ عضو يتم تلقينهم أن الاندماج فى المجتمعات الغربية خيانة للإسلام.

وهذه المنظمات الإسلامية تؤدى خدمات للمهاجرين مثل إيجاد فرص العمل والسكن، وفى برلين وحدها ١٨٠ ألف تركى، ومعدل البطالة بينهم ٤٠٪، ولا تعرف الدولة من الذى تتعامل معه فى شئون المسلمين.. ومعظم المساجد فى برلين قائمة على أساس الانتماء للبلاد الإسلامية.. ويرى الغربيون أن ما يقوله أئمة المساجد غريب وغير مفهوم بالنسبة لهم.. وفى لندن يبث أبو حمزة المصرى فى المصلين الكراهية لأمريكا فى كل خطبة..وقد أعلن الرئيس الأمريكى جورج بوش الابن أن البوليس الإيطالى كان على علم بأن معهد الثقافة الإسلامية فى مدينة ميلانو يؤوى خلية إرهابية. ومعظم المساجد فى أوربا ليست مثل المساجد فى الدول الإسلامية من حيث المبانى الخاصة والقباب والمآذن، ولكنها عبارة عن قاعات أو جراجات. وتزيد الشكوك حولها كلما ترددت أخبار بأن الأئمة يحرضون المسلمين فى هذه المساجد على العنف كما حدث مؤخرا فى العاصمة الهولندية أمستردام. والمعتاد أن ترسل حكومات الدول الإسلامية أئمة لإعطاء الدروس للكبار والأطفال فى ألمانيا من خلال منظمة D. I. T. I. B، وكذلك تفعل الجزائر والمغرب نفس الشيء فى فرنسا، وفى «ليه فال فوريه» ، تم بناء مسجد بتمويل من السعودية، ولفترة كان فى جهاز المخابرات الفرنسى إمام متطرف ! .

وتتساءل «الايكونومست»: لماذا تعتقد الحكومات فى الدول الإسلامية أن من واجبها إنشاء المساجد وإرسال الأئمة إلى دول أجنبية؟ هل لحرص «حكومات

هذه الدول الإسلامية» على إبقاء المهاجرين منها على نفس الثقافة والقيم التى هاجروا بها وحمايتهم من التأثر بأفكار التحرر الأوربية ؟ أم لأن مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة ليس واضحا بعد فى أذهان المسلمين الذين يؤمنون بنظم الحكم الثيوقراطية ؟

والخوف من المتطرفين الإسلاميين ليس مقصورا على غير المسلمين فى الغرب، بل إن بعض المسلمين أيضا يعبرون عن مخاوفهم من التطرف الإسلامى فى أوربا، ومنهم مثلا «خول مولاى» أحد أئمة مارسيليا فى إيطاليا الذى يعلن صراحة مخاوفه من المتطرفين ليس فقط من الصومال أو اليمن ولكن من بريطانيا أيضا! ويقول صهيب بن شيخ مفتى مارسيليا إن من الضرورى تحصين المسلمين ضد التطرف الإسلامى الموجود فى أوربا، وكثيرون يطالبون بتدريب الآئمة الذين يتولون الإرشاد والخطابة فى مساجد أوربا. ولكن من أين ستأتى الأموال الكافية لإنشاء وإدارة المعاهد لتدريب هؤلاء.. بينما دولة مثل فرنسا يحظر دستورها تقديم أموال من الدولة للشئون الدينية، مع أن الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية تحصل على فوائد الضرائب... وهناك اقتراحات لتيسير إقامة معاهد تأهيل وتدريب الأئمة.. منها اقتراح بأن تقوم الحكومات بتأجير المبانى الحكومية بقيمة اسمية لإنشاء هذه المعاهد، واقتراح آخر للتحايل على الحظر القائم فى الدستور الفرنسى هو أن تنشئ الدولة معهدا إسلاميا لتدريب الأئمة فى منطقة «الزاك - لوريان» التى لم تكن جزءا من فرنسا عندما صدر قانون الفصل بين الكنيسة والدولة. . المهم أن هناك محاولات للبحث عن وسائل للتحايل على القوانين والدساتير الأوربية من أجل تطعيم الإسلام الأوربى بأفكار متحررة بعيدة عن التعصب. . وفى ألمانيا ينص الدستور على حق الأطفال فى الحصول على تعليم دينى فى المدارس، وفى بعض المقاطعات تشرف الكنيسة على نصف مدارس الأطفال تقريبا وتدفع لها الدولة ٦٠٪ من ميزانياتها. . أما الأطفال اليهود فإنهم يدرسون الديانة اليهودية تحت إشراف المجلس المركزى اليهودى، ولكن المسلمين فى ألمانيا لا يتلقون دروسا فى الدين الإسلامى فى مدارس الدولة مع أن عدد مسلمى ألمانيا ٣ ملايين و ٢٠٠ ألف مسلم، ولا يدرس الدين الإسلامى إلا فى المدارس الخاصة غير الحكومية، ويتولى المجلس المركزى للمسلمين هذه المهمة ، وقد بُدئ فى إنشاء معهد لإعداد مدرسى الدين الإسلامى..

أما أسبانيا فهى متخلفة عن ذلك كثيرا جدا. . وتقول الحكومة: إنها مازالت تبحث عن جهة أو سلطة تبحث معها كيفية التعامل مع المسلمين فى الدعوة والتعليم .

وتقول: يتمتع مواطنو دول الكومنولث بحق التصويت فى الانتخابات البريطانية، ومن هؤلاء مسلمون من بنجلاديش ، والهند، وباكستان، وبعض دول أفريقيا لهم حق التصويت فى الانتخابات بمجرد وصولهم إلى بريطانيا، وعلاوة على ذلك يعتبر أبناؤهم بريطانيين إذا ولدوا فى بريطانيا. . وعلى العكس من ذلك تمنح الجنسية فى فرنسا وألمانيا بصعوبة للمهاجرين .

وفى آخر التقرير تقول «الايكونومست» : إن المسلمين يمكنهم التكيف مع المجتمعات الغربية بدليل اندماج آلاف منهم ونجاحهم فى الغرب ، كذلك من الخطأ الاعتقاد بأن الإسلام دين يدعو بالضرورة للتعصب ، وصحيح أن بعض المسلمين غير متسامحين مع الجنسية المثلية، ويعاملون المرأة معاملة سيئة ، ولكن العلاقات الجنسية الشاذة كانت تعتبر جريمة فى معظم الدول الغربية إلى وقت قريب، ولم تحصل المرأة على حقها الكامل فى التصويت إلا فى عام ١٩٢٩ ، ولم يكن مسموحا للمرأة بتوقيع شيكات أو فتح حسابات باسمها فى البنوك حتى عام ١٩٦٢. ومع الوقت سوف يكتسب المسلمون المهاجرون الثقافة الأوربية ، ويقل حرصهم على الزواج من داخل مجتمعاتهم. . ومع ذلك ففى الغرب أيضا مثل هذا الحرص على الزواج من داخل المجتمعات. . فكثير من الكاثوليك يرفضون الزواج من البروتستانت مثلا. . ويبقى الشىء الخطير هو تشرذم المسلمين فى أوربا فى تجمعات ومجتمعات مغلقة تجعل اندماجهم فى المجتمعات الأوربية صعبا. .

وتختم «الايكونومست» تقريرها بأن المسلمين فى عمومهم أناس صالحون ويتبعون القوانين ويتمسكون بقيم الأسرة ، وأبناؤهم الذين يتلقون تعليما دينيا يكتسبون ثقة فى أنفسهم تساعدهم على التقدم ، ولكن الإسلام دين قابل للتحريف واعتناق التطرف مثل الأديان الأخرى، وليست هناك سلطة دينية تحكم المسلمين ، وكل إمام يقول ما يريد وما يعتقد أنه الإسلام الصحيح حتى ولو كان يعبر عن التطرف بوضوح .

المسلمون فى الغرب مشكلة لأنهم – كما تقول الايكونومست – منغلقون على أنفسهم ، ويرفضون الحضارة والثقافة الغربية المتقدمة ويريدون أن يفرضوا على الغرب ثقافتهم التى جاءوا بها من دول متخلفة .

هل هذا تعبير عن «صدام الحضارات» الذى تحدث عنه صمويل هنتنجتون وأصبح الحديث عنه على ألسنة الجميع بعد ذلك ؟ وهل تحول «صدام الحضارات» من صدام بين دول الغرب المتقدمة والدول المتخلفة إلى أن أصبح الصدام داخل المجتمعات الغربية ذاتها بعد أن انتقلت الثقافة والحضارة الإسلامية المتخلفة مع المهاجرين إليها ؟.. بعد أن تقول الايكونومست ذلك تتساءل: كيف سيكون مستقبل هذا الصدام ؟

وتقول قد نفهم وجود الخوف والعداء من الإسلام عند الغربيين ولكن لا نفهم الهجوم على المسلمين من المسلمين أنفسهم. .

ففى ١٩ يوليو ٢٠٠٢ وقف رئيس وزراء ماليزيا مهاتير محمد فى المؤتمر الدولى عن الإسلام الذى عقد فى كوالالمبور عاصمة ماليزيا ، وتُساءل: كيف حال العالم الإسلامى اليوم ؟ وأجاب : إن العالم الإسلامى اليوم ضعيف وميئوس منه وليس خطأ القول بأن العالم الإسلامى يمر اليوم بأكبر فترات الانحطاط وهو مستمر فى الانحطاط والتدهور. . ومنذ سقطت الإمبراطورية التركية أمام هجوم الدول الأوربية، تفكك العالم الإسلامى إلى دول صغيرة غير مؤثرة، ولم يستطع العالم الإسلامى إصلاح أحواله أو إعادة تواجده على المسرح الدولى، كما لم تستطع كل دولة من الدول الإسلامية أن تحقق لنفسها أى تقدم أو يكون لها أى تأثير. . وكل ما حدث أن تعاون المسلمون مع الأوربيين ليتخلصوا من الحكم التركى فلم يحققوا إلا شيئا واحدا هو استبدال سيد بسيد. . ذهب الأسياد الأتراك وجاء الأسياد المستعمرون البريطانيون والفرنسيون. . وظلوا تحت حكم الاستعمار سنوات طويلة ولم يتخلصوا منه إلا بصعوبة شديدة. . ولم يقدروا بعد الاستقلال على تطوير بلادهم وتعثروا فى مشكلات داخلية ظلت تعوق تقدمهم ، وحتى عندما جاءتهم الثروة لم يحققوا أى تقدم، والآن لا توجد دولة مسلمة واحدة ضمن دول العالم المتقدم . وعندما ظهرت الثورة الصناعية فى القرن التاسع عشر كان العالم الإسلامى فى حالة أفضل. . لم يكن منقسما كما هو الآن. . ولكن المسلمين أصبحوا فى غيبة مما يحدث. . فلم يدركوا أن هناك ثورة صناعية ، وأسوأ من ذلك

أن المسلمين ظلوا لسنوات طويلة يرفضون نتائج الثورة الصناعية. . يرفضون تعلم العلوم التى قامت عليها. . ويرفضون المكاسب المادية التى حققتها. . ويرفضون النظم الجديدة التى جاءت معها. . وكان الرفض لأن هذه النظم «غير إسلامية». . ورفضوا لهذا السبب حتى الكهرباء، والسيارات ، والآلات لسنوات طويلة. . وضاع على المسلمين وقت طويل وثمين تقدمت فيه دول الغرب علميا وثقافيا وصناعيا وتكنولوجيا. . وظل المسلمون واقفين فى مكانهم. . وضاعت عليهم فرصة التقدم. .

مشكلة المسلمين – كما قال مهاتير محمد – أنهم مهتمون بالحرام ، ويبالغون فى التحريم، ويتحمسون لهذه المبالغة ، حتى وصلوا فى أفغانستان إلى أن إظهار أى جزء من وجه المرأة حرام. . بينما فى دول إسلامية مسموح بإظهار الوجه والكفين.. وفى دول إسلامية أخرى مسموح شرعا بما هو أكثر. . ولا أحد يعرف من الذى أصدر هذه الأحكام الخاصة بالأزياء الشرعية للرجال والنساء، بينما يتجاهلون تعاليم الإسلام فيما هو أهم. . فالمبدأ فى الكتاب «إنما المسلمون إخوة» ومع ذلك فإن هناك مسلمين يجعلون رسالتهم فى الحياة محاربة وقتل إخوتهم المسلمين ، ويوجهون أحكام الإدانة للمسلمين بأنهم كفار لتبرير عدائهم لهم. . ولو ساد هذا الفهم المغلوط فلن يتبقى فى العالم مسلمون. . مادام المسلمون يقتل بعضهم بعضا. مع أن الإسلام يحرم الحكم على مسلم بالكفر مادام ينطق بالشهادتين. . وبالمثل فإن الإسلام يأمر المسلمين أن يكتسبوا العلم ويسعوا إليه ، ولكن المسلمين يتجاهلون هذا الأمر الصادر إليهم من رسولهم «اطلبوا العلم» ونتيجة لذلك تدهور حال العلم والعلماء فى الدول الإسلامية بعد أن كان التقدم العلمى على أيدى علماء مسلمين عظام فى الرياضيات والطب والكيمياء والفلك والجغرافيا وسائر العلوم الأخرى. . وفى ذلك الوقت كانت للمسلمين حضارة مزدهرة... ولكن بعد أن جاء من أطفأ أنوار العقل، وادعى أن العلم هو العلم بالدين فقط، تقهقر المسلمون وعاشوا فى ظلام الجهل ، وحتى اليوم مازالوا متخلفين بينما هذا العصر عصر المعرفة. . وأصبح نصيب المسلمين فى التقدم العلمى ضئيلا. . ولا مكان لهم فى التنافس العلمى، وهم يقرءون فى كتاب الله الدعوة إلى امتلاك أسلحة القوة. . ومع ذلك لا يفهمون هذه الحقيقة ولا يعملون

بها. . بينما اليهود لا يزيدون على ١٣ مليونا فى العالم كله، ولكنهم - بامتلاكهم للمعرفة وعناصر القوة - قادرون على التفوق على ١٣٠٠ مليون مسلم. . والمسلمون الآن فى حال تجعل كل من يريد قهرهم قادرا على ذلك، ولم يعد أمامهم غير البكاء ومناشدة العالم بالقانون وطلب العدالة. . والواقع يشهد بأن العالم الإسلامى ضعيف ، ومتخلف بشكل ميئوس منه.. ولن يتقدم إلا إذا أدرك أن التقدم قائم على العلم والمعرفة ليس فقط بشئون الدين بل بشئون الدنيا أيضا. .

ولن تكون للمسلمين قيمة فى العالم إلا إذا كانوا قادرين على التقدم صناعيا وتكنولوجيا.. وقادرين على الاختراع والابتكار.. وقادرين على صناعة السلاح المتقدم.. وإذا لم يصلوا إلى هذه الدرجة فلماذا يعمل العالم لهم حسابا؟

هذا ما قاله مهاتير محمد ليؤكد ويعمق فكرة تخلف المسلمين لأنهم لا يفكرون ، ولايعايشون العصر، ولا يتفرغون للعلم والبحث العلمى ، ولا يؤمنون بقيمة العلم ، لأن مفهوم العلم عندهم هو العلم بشئون الدين والجدل حول الحلال والحرام ولا شىء قبل أو بعد ذلك، وبذلك تركوا التفوق فى الصناعات والتكنولوجيا لغيرهم .

وهذه هى الفكرة التى تغذى تيار الكراهية والعداء فى الغرب للإسلام باعتباره دينا يدعو للتعصب والكراهية للآخرين ويعادى العقل والتفكير والمعرفة العلمية. .

وما أكثر الذين يتلقفون هذه الفكرة ويصنعون منها الكثير من الصور المشوهة للإسلام والمسلمين. وما أكثر الذين أخذوا كلام مهاتير محمد ونشروه وروجوا له بكل وسيلة فى أوربا وأمريكا ليقولوا إن هذا اعتراف بأن الإسلام هو سبب تخلف المسلمين بلسان رئيس وزراء دولة إسلامية . !

أكبر مشاكل المسلمين أنهم حتى الآن لم يدركوا كيف ينظر إليهم الآخرون فى الغرب ، وماذا يقولون عنهم ، ولماذا تتزايد مشاعر العداء تجاههم ؟ .

فى واشنطن عقدت ندوة مهمة يوم ٢٦ مايو ١٩٩٤ موضوعها «الصحوة الإسلامية فى الشرق الأوسط» شارك فيها «روبرت بيللترو» الذى كان سفيرا لأمريكا فى القاهرة ثم مساعدا لوزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى، وجون

ايسبوزيتو مدير مركز التفاهم الإسلامى المسيحى بجامعة جورج تاون بواشنطن ، وادنيل بايبس الباحث ومحرر مجلة الشرق الأوسط الفصلية التى تصدر فى واشنطن ، وقال بيللترو فيها: إن أهداف السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط تتلخص فى: البترول، وإسرائيل، ومنع انتشار أسلحة الدمار الشامل فى المنطقة «مع استثناء إسرائيل» وترويج مبادئ المشاركة السياسية وحقوق الإنسان ، ومحاربة الإرهاب ، والخصخصة واقتصاد السوق ، وتشجيع رجال الأعمال الأمريكيين على الحصول على فرص الاستثمار فى المنطقة. . أما عن الإسلام فقال: إن أمريكا ضد الذين يستخدمون الدين الإسلامى لتعميق الشعور المناهض للغرب .

أما «دانيل بابيس» فطرح مباشرة السؤال الذى يدور فى عقول الأمريكيين : هل الإسلام هو العدو ؟ وأجاب : لا. . ثم تساءل : هل هناك أصوليون طيبون وأصوليون أشرار ؟ وأجاب : لا. . كلهم أشرار. . والسبب هو طبيعة الأصولية ذاتها. . فالأصوليون الإسلاميون ضد الغرب ، وبالتالى فإن على الولايات المتحدة أن تعد «الحملات النشيطة ضدهم» .

قيل هذا عام ٩٤ ولم يفهم المسلمون ما تعنيه عبارة «كلهم أشرار» وهو ضرورة قيام أمريكا بإعداد حملات نشيطة ضد الأصوليين الإسلاميين. . وأظن أنه يمكن الآن فهم ما تعنيه هذه العبارة. . ولا يهم أن تعتبر أمريكا أية دولة جماعة إسلامية أصولية. . المهم أن توجه إليها «الحملات النشيطة» لإخضاعها. !

وقال «بايبس» أيضا إن على الغرب أن يمارس الضغوط على عدة دول إسلامية من بينها إيران والسودان وأفغانستان والعراق ، وكذلك على الولايات المتحدة أن تقدم كل ما تملكه من تأييد لأمثال سلمان رشدى الذى وقف فى وجه الأصوليين.

طبعا المغالطة واضحة لأن سلمان رشدى كان يشوه تشويهًا متعمدا ومقصودا مبادئ الإسلام وشخصية نبى الإسلام وزوجاته ، ويشكك فى أن القرآن كتاب الله، وهو بذلك ضد الإسلام ذاته وليس ضد الأصولية الإسلامية .

المهم أن هذه الندوة انتهت إلى ضرورة محاربة أو احتواء الأصولية الإسلامية، ومن الممكن أن يتعاون الغرب مع الأصوليين إذا كان فى ذلك مصلحة الغرب كما حدث فى دعم أمريكا للمنظمات الأصولية فى أفغانستان ، ولكن لا يمنع ذلك من الانقلاب عليهم بعد ذلك وفى الوقت المناسب بعد أن ينتهى تحالف المصلحة وهذا ما حدث فى أفغانستان وما سيحدث قريبا فى دول إسلامية أخرى .

وانتهت الندوة كذلك إلى أنه لا أمل للمسلمين فى تعاون الغرب معهم إلا أن «يكونوا مثلنا». . وهذا يعنى أن يتخلوا عن أفكارهم وأسلوب حياتهم أو على الأقل التخلص عن بعضها !

وعلق على الندوة الباحث الأمريكى «جون مونرو» فقال: إن الفارق كبير بين الغرب والإسلام، وإن التقارب غير ممكن. . فالأساس فى الإسلام هو «الطاعة» فى جميع الأحوال، ويشترك فى الإيمان بذلك جميع المسلمين المعتدلين والأصوليين، لأن الطاعة هى التى تجعل المسلم مسلما صالحا، بينما الطاعة ليست من القيم الغربية ، والقيمة الأولى فى الغرب هى «الحرية» فى التفكير. . الحرية فى التصرف. . الحرية فى أن تؤمن بما تود أن تؤمن به طبقا لما يمليه على كل فرد عقله وضميره. . وكذلك فإن الغرب والإسلام ينظران إلى «الله» وإلى «العالم» بنظرة مختلفة وهذا الاختلاف هو المصدر الرَّئيسى للاحتكاك والخلاف والانقسام. . المسلمون ينظرون إلى «العالم» من خلال عيون النبى والأئمة. . والغربيون ينظرون إلى العالم من خلال عيون العلماء الواقعيين والباحثين والمفكرين ومن خلال المصلحة والمنفعة. .

وهكذا يفكرون، ويعملون، من أجل البحث عن العدو، وإيجاد العدو حتى ولو لم يكن موجودا. وقد عبر عن هذا الاتجاه فى أمريكا «بول كروجمان» فى مقال فى «نيويورك تايمز» فى ٢٨ أكتوبر ٢٠٠٢ بعنوان «اختراع الحقائق عند الضرورة» قال فيه: إن الفكر والسياسة فى أمريكا يقومان باختراع الحقائق التى تساعد على تحقيق الأهداف الأمريكية إذا لم تكن هذه الحقائق موجودة فى الواقع بالفعل.

وليس هنتنجتون وحده الذى بحث عن «العدو» للغرب ووجده فى «الإسلام». وقد تحدث عن ذلك بوضوح الكاتب البريطانى باتريك سيل فى مقال بعنوان

«التحالف الأمريكى الروسى ضد الإسلام» نشرته صحيفة الحياة اللندنية فى ١٨ يناير ٢٠٠١ وحذر فيه من أفكار وزير الدفاع الأمريكى «دونالد رامسفيلد» وقال إن الغرب اعتاد الاختباء وراء عبارة «الأصولية الإسلامية» ، بينما يقصد فى الحقيقة «الإسلام» نفسه، ولذلك يتعمد الغربيون الخلط بين الإسلام والإرهاب، لأن مفهوم الأصولية الإسلامية عندهم هو الإسلام ذاته .

وأخيرا يجب أن يلفت النظر ما يقال من أن على أمريكا أن تقدم كل ما تملك من دعم وتأييد لأمثال سلمان رشدى والادعاء بأنه وقف فى وجه الأصوليين. . بينما رواية سلمان رشدى «آيات شيطانية» لم توجه النقد إلى الأصولية أو إلى الإرهاب أو إلى الأفكار المنحرفة التى تدعى أنها تعبير عن الإسلام، ولكنها مليئة بالسباب والإساءة والعداء الصريح للعقيدة الإسلامية ذاتها.

ولو قرأنا هذه العبارة مرة أخرى ربما نفهم لماذا تقدم أمريكا الحماية والدعم المالى والسياسى لأمثال سلمان رشدى وتقدمهم على أنهم أبطال حرية الفكر .

الإسلام ضحية الإعلام الأمريكى.. والصهيونى !

لابد أن نعترف بأن اللوبى الصهيونى قد نجح نجاحا كبيرا فى تشويه صورة العرب والمسلمين فى داخل إسرائيل وفى داخل الولايات المتحدة، وأنه وصل إلى تكوين صورة نمطية منفرة للعربى والمسلم فى عقول الإسرائيليين والأمريكيين.

واللوبى الصهيونى يتميز أولا بأنه يعمل وفق مخطط طويل المدى لسنوات وسنوات ويستمر فى التنفيذ بكل الوسائل،فى الإعلام، ومؤسسات التعليم والتربية، وحتى الجامعات ومراكز الأبحاث. ويتميز ثانيا بأنه يعمل بمجموعات من الخبراء والسياسيين ويتغلغل فى جميع المواقع تقريبا، ويصل إلى كل مجموعة من الناس بالأسلوب الذى يناسبها ، ويتميز ثالثا بأنه لا يشكو من نقص التمويل، أو قلة الكوادر المؤهلة علميا والمدربة والتى تحمل جنسية كل بلد تعمل فيه وتتحدث فى كل بلد بلغته، وتعرف جيدا المداخل المناسبة والأوتار الحساسة للتأثير على المشاعر والعقول فيه.

ففى إسرائيل لا تظهر الشخصية العربية والإسلامية فى أدوات الاتصال الجماهيرى والكتب المدرسية إلا شخصية مشوهة تبعث على الكراهية أو تثير السخرية. وقد نشرت صحيفة (هآرتس) منذ سنوات نتائج بحث أجرى فى قسم تأهيل معلمى اللغة العربية فى جامعة تل أبيب تحت إشراف البروفيسور حزاى بوروش، وتبين من هذا البحث أن الشخصية النمطية التى تدرس للعربى والمسلم فى المناهج الدراسية لم تتغير بعد معاهدة السلام مع مصر، ولا بعد معاهدة السلام مع الأردن، وإنها مازالت تقدم للتلاميذ فى جميع مراحل التعليم لتأكيد الاعتقاد بأن العرب والمسلمين فى مرتبة اقل من اليهود، وأن هذه المناهج فى عمومها تجعل الطلبة اليهود لا يجدون فى أنفسهم رغبة فى محاولة التعرف على أقرانهم من العرب والمسلمين أو الاشتراك معهم فى حوار أو نشاط.

وقد أعد البروفيسور حزاى بوروش بحثا قام فيه بتحليل ١٢ كتابا مدرسيا تدرس فى المرحلة الإعدادية فى المدارس الإسرائيلية، تم إعدادها بعد حرب ٦٧ ومازالت مقررة تدرس للتلاميذ حتى الآن. وقال البروفيسور بوروش فى بحثه: إن الرسائل الإعلامية فى هذه الكتب تقدم شخصية العربى والمسلم بما يبعث على النفور منها من حيث المظهر، والملابس، والعادات، وأسلوب المعيشة، والعلاقات داخل الأسرة، والأعمال التى تناسبها، وتتحدث عن علاقات العرب والمسلمين على أنها علاقات متوترة وعدائية، على الرغم من أن الشعار الرسمى المعلن لوزارة التعليم الإسرائيلية الذى تردده فى المناسبات هو (التعايش والتطبيع) والكتب التى تقررها فى المدارس تكشف عن حقيقة مغايرة، فقد أظهرت الدراسة أن قلة قليلة من النصوص فى الكتب الدراسية تتحدث عن الثقافة العربية أو الإسلامية وركزت الكتب على مجرد تدريس اللغة العربية.

وفى هذه الكتب التى يدرسها تلاميذ المدارس الإعدادية فى إسرائيل- وهم فى سن تكوين الصور النمطية والاتجاهات العقلية والنفسية - يظهر العربى التقليدى فى عدة مظاهر، فهو البدوى دائم الترحال أى لا أرض له ولا وطن!، أو هو الخادم الذى يعمل لدى سيده غير العربى وغير المسلم، أو هو الفلاح الجلف الجاهل الذى لا يعرف الذوق والأسلوب الحضارى فى التفاهم والتعامل مع الآخرين، دون أدنى إشارة إلى أحد من المثقفين أو العلماء أو الشخصيات البارزة من الفلسطينيين أو العرب أوالمسلمين عموما .. وحتى الفلاح العربى والمسلم لا تصوره الكتب المدرسية إلا فى صورة الجاهل المتخلف الذى يزرع الأرض بشكل تقليدى وشأنه شأن أغلبية العرب والمسلمين يتمسكون بما هم عليه من أسلوب حياة وأفكار تقليدية وبدائية، ويرفضون التجديد والتطور، ولا تقدم هذه الكتب العربى والمسلم إلا على أنه الفلاح، وعامل البناء، والنجار، والحلاق، وهو غالبا فقير، يعيش فى خيمة، ويركب الحمار، وليس أمامه مجال آخر يصلح له إلا عمله الذى يقوم به والذى يناسب قدراته الذهنية والتعليمية. أما (العربى العصرى) فلا يذكر فى الكتب المدرسية إلا بشكل عابر، ولذلك فإن الرسالة الإعلامية التى يهدف المنهج الإسرائيلى توصيلها للتلاميذ أن العرب والمسلمين مكانهم الطبيعى على هامش الحياة والمجتمع، ودورهم تأدية الخدمات التى

لا تناسب الإنسان المتحضر، وليس بينهم سوى قلة لا تذكر من المثقفين، وأما المرأة المسلمة فهى أكثر تخلفا .. ويصل الباحث الجامعى الإسرائيلى فى نهاية بحثه إلى أن كتب تعليم العربية للتلاميذ فى إسرائيل فإنها تعمق (التصنيف الثقافى) فى عقول الأجيال الجديدة، وتؤكد الإحساس بالتفوق الإسرائيلى والدونية للعربى والمسلم.

وما يدرس فى الإعدادى يدرس بتوسع أكبر فى الثانوى والجامعة، وما تنشره الصحف ومراكز البحوث، وما يقدمه التليفزيون ، والمسرح، لا يخرج عن هذا الإطار: التفوق الإسرائيلى، والدونية للعرب والمسلمين. وماذا يمكن أن تكون النتيجة ؟

الغريب أن الولايات المتحدة وإسرائيل تعملان بمنتهى القوة على تغيير مناهج الدراسة فى العالم العربى لغرس الثقة والاحترام فى الأمريكى والإسرائيلى ونشر (ثقافة السلام) ، بينما ينشرون هم (ثقافة الكراهية وثقافة العداء) .

أما الصورة النمطية للعرب والمسلمين فى الثقافة الشعبية الأمريكية فقد أعد لنا عنها البروفيسور جاك شاهين تقريرا بالغ الأهمية استغرق إعداده عشرين عاما ولم يورد فيه معلومة دون أن يحدد مصدرها، ويحلل ما فى الكتب وبرامج الإذاعة والتليفزيون وأفلام السينما الأمريكية، ويصل من هذا التحليل إلى أن (صناعة العقل الأمريكى) تعمل على تكوين صورة سلبية عن العرب والمسلمين فى الثقافة الشعبية أهم عناصرها: البداوة، والرمال، والخيام، والنخيل، والحريم. ومن حسن الحظ أن قام الدكتور السيد عمر بترجمة هذا التقرير .

صورة العرب والمسلمين تقدم فى الثقافة الشعبية الأمريكية فى صورة سهلة وجذابة حتى أصبحت عملة رائجة، وتؤكد هذه الدراسة أنه منذ الربع الأخير من القرن العشرين ظل العرب يمثلون (الآخر الخطير) فى المنظور الأمريكى، ويتردد بقوة أن الخطر (الأخضر) أى الإسلامى هو البديل للخطر «الأحمر» أى الشيوعية، وفى الذهن الأمريكى هناك معنى واحد للإسلام، والجهاد ، والكراهية، والتعصب، والعنف، وعدم التسامح، واضطهاد المرأة... وتشير الدراسة إلى استطلاع للرأى أجرى عام ١٩٩٤ بين ثلاثة آلاف شخص من

الأمريكيين البيض والسود وذوى الأصل الآسيوى واللاتينى حول العلاقة بين الطوائف الأمريكية فقال ٤٢٪ منهم إنهم يرون أن الإسلام دين يرتبط بالإرهاب ويؤيده ، و٤٧٪ يرون أن المسلمين معادون للغرب عموما وللأمريكيين خصوصا ،و٦٢٪ يرون أن المسلمين يضطهدون المرأة ويسيئون معاملتها ، كما تشير الدراسة إلى أن (الجهاد) فى الإعلام والأدب والسينما فى أمريكا يقدم على أنه (حرب مقدسة) يفرضها الإسلام على المسلمين ضد غير المسلمين، وأصبحت كلمة (الأصولية) مرتبطة بالإسلام والمسلمين وبالجماعات الإرهابية دون تفرقة، بالرغم من أن (الأصولية) ليست إسلامية أو عربية.ولكنها ظهرت عند الأمريكيين البروتستانت الذين يلتزمون التزاما حرفيا بالإنجيل، وفى الإعلام الأمريكى الآن يتكرر بصورة مقصودة وصف الإسلام بالأصولية وبالإرهاب على أنه لا يمكن الفصل أو التفرقة بينهما! ويردد الإعلام الأمريكى أن كل مسلم فى العالم هو صورة طبق الأصل من خومينى أو صدام حسين، ونجحوا فى الخلط بين العقائد الإسلامية والمواقف والحركات السياسية فى العالم الإسلامى وجعلوها حزمة واحدة .

وأكثر من ذلك وصل الخلط فى الذهن الأمريكى إلى حد أن بعض الأمريكيين يعتقدون أن إيران دولة عربية ، ويوجهون الإدانة إلى المسلمين عموما بالصورة التى كونوها عن إيران وثورة الخمينى، والدليل على أن الأمريكيين فى عمومهم لا يعرفون عن الإسلام والعرب غير الصورة المشوهة التى تقدم لهم أن الدراسة توصلت إلى أن معظم الأمريكيين يسحبون على العرب إدانتهم لإيران باعتبارها دولة فى محور الشر على حد تعبير الرئيس الأمريكى جورج بوش، ولا يعرف الأمريكيون أن العرب لا يمثلون سوى ١٢٪ من المسلمين، والشائع بينهم أن كل المسلمين عرب، وأن الإيرانيين عرب، وليس ذلك غريبا مع ما هو معروف من أن الأمريكيين يعتنقون الأفكار الجاهزة التى تقدم إليهم دون أن يشغلوا أنفسهم بالبحث عن مدى صدقها أو التفكير فى أنها منطقية أو غير منطقية، خاصة وآلة الإعلام الأمريكية تتبع أساليب سيكولوجية وعلمية وتكنولوجية شديدة التأثير وتجعل المتلقى يفقد القدرة على التمييز والنقد.

ونتيجة للتكرار والتنوع فى الإعلام والفنون وحتى فى دراسات مراكز البحوث والجامعات، ترسخت حالة نفسية من الكراهية للعرب والمسلمين بحيث أصبح من المعتاد إدانة جميع العرب والمسلمين على أية جرائم ترتكب، وقد عبر عن ذلك فيليب جيلين فى صحيفة واشنطن بوست بأن الصحفيين الأمريكيين يعملون على أساس الصور النمطية المجسدة فى الرسوم الكاريكاتيرية، والتليفزيون، والسينما، والكلمة المكتوبة، إلى النظر إلى العرب على أنهم كلهم سواء، وإلى أخذ الجميع بجريرة القلة، بل إن بعض المفكرين يتحدثون عن (القبيلة العربية) و (الغرائز البدوية العربية) للإيحاء بأن العرب غير أكفاء للمواطنة أو الحكم، وأن العرب يلبسون ملابس ويحملون أسلحة تدعو للسخرية، ومع ترسخ هذه الرؤية السلبية المتحيزة عن العرب والمسلمين فإن التعصب ضدهم فى الغرب لا يجد معارضة.

ومن النتائج التى توصل إليها هذا البحث أن معظم الأمريكيين لا يعرفون شيئا عن تعاليم ومبادئ الإسلام، ولا يعرفون شيئا عن أعياد المسلمين، ولا يعلمون أن هناك نقاط اتفاق بين الديانات السماوية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام، وعلى الرغم من أن البلاد العربية فيها (ملايين من المسيحيين) هم عرب دما ولحما فإن الإعلام الأمريكى لا يشير إلى هذا الحقيقة، وكذلك لا يشير إلى أن الأمريكيين من أصل عربى معظمهم من المسيحيين و٣٠٪ منهم فقط من المسلمين، ورغم أن الولايات المتحدة فيها مسلمون أمريكيون عددهم الآن بين خمسة وثمانية ملايين وبذلك يعتبر الإسلام هو الديانة الثانية فى أمريكا.. ورغم أن الولايات المتحدة فيها ما يزيد على ٢٠٠ ألف مشروع أعمال إسلامى، و ١٥٠٠ مسجد و ١٦٥ مدرسة إسلامية، و٤٢٥ رابطة وجمعية إسلامية، و ٨٥ نشرة ومجلة إسلامية، فإن وسائل الإعلام تشوه صورة المسلمين ومؤسساتهم وتصور كل المسلمين الأمريكيين على أنهم من اتباع لويس فرخان.

و«لويس فراخان» زعيم طائفة من المسلمين الأمريكيين تتهمه الصحافة بأنه حصل على أموال أجنبية من بلاد إسلامية للتأثير على الانتخابات الأمريكية عام ١٩٩٦، وتدعى بأنه أعلن (أن الله سيدمر أمريكا على يد المسلمين) كما تدعى بأنه حين التقى مع الزعيم الليبى معمر القذافى قال له: إذا كان

بحاجة إلى مساعدة فإنه فى إمكانه أن يرسل إلى ليبيا أربعين مليون مسلم أمريكى، وهذا ادعاء لا أساس له وهو اقرب إلى الكاريكاتير، لأن اتباع «لويس فراخان» أقل من عشرين ألفا، وسائر المسلمين الأمريكيين يعارضون لويس فراخان. ومع أن المسلمين الأمريكيين وغير الأمريكيين يعيشون جنبا إلى جنب مع غيرهم من الطوائف إلا أن وسائل الإعلام تصورهم على أنهم خطر على المجتمع وعلى الأمن القومى، وأنهم يتساوون فى الخطورة مع مهربى المخدرات والمجرمين، ويساندون الأعمال الإرهابية وموالون للحكام الطغاة فى العالم الإسلامى.

وتشير هذه الدراسة إلى أن التشويه وصل إلى حد أن البعض يتحدث عن المسلمين على أنهم (يعبدون القمر)، ويذكر أمثلة على ذلك ما رددته جانيت بارشالز فى الإذاعة يوم ١٥ مايو ١٩٩٦ وكرره الدكتور روبرت مورى فى محاضرات ومطبوعات بعنوان (الله – إله القمر) و (الإسلام : ديانة إله القمر) و (الغزو الإسلامى: التصدى لأسرع الأديان انتشارا فى العالم) ويقول فيها إن دين الله – إله القمر الصحراوى – يشق طريقه إلى سجون كارولينا الجنوبية، وإن (إله المسلمين إله وثنى).

وأنا شخصيًّا لا أصدق أن هناك إنسانًا عاقلا فى العالم يمكن أن يقول إن الإسلام ديانة إله القمر، لأن هذا هراء لا يصدر إلا عن «هلاوس» مجنون، ولكن ما يدهشنى أن يؤكد ذلك إبراهيم هوبر رئيس مجلس العلاقات الأمريكى الإسلامى ويقول: «إن فكرة إله القمر رائجة خاصة عند الإنجيليين الذين يؤيدون مثل هذه الخزعبلات فى كتبهم. ويكرر بعضهم مقولة دانتى عن الرسول صلى الله عليه وسلم: (بأنه الشخص الذى حطم قبضة المسيحية ويستحق على ذلك أشد عقوبة بأن يشق نصفين من رأسه إلى ما بين قدميه) كما يردد البعض قول واشنطن ايرفنج الذى كتب عام ١٨١٣ يقول (على الرغم من عبقرية النبى محمد فإن أحكامه نتاج للسقم والتعصب الدينى) وبعد ذلك بقرن كامل يكتب جونلويد ستيفنز: إن (كل مسلم مخلص لإسلامه يتزوج ستا وثلاثين عذراء ليشبع رغباته) ويرفق ذلك برسم توضيحى تظهر فيه سيدتان بدويتان نهودهما عارية ومكتوب تحت الرسم (هذا ما يتوقع كل مسلم تقى أن يجده فى الجنة).

قد لا يصدق البعض أن كل ذلك قيل ويقال فى أمريكا، ولكن هذه الدراسة العلمية تشير إلى قائمة طويلة تحمل عناوين منها (نيران الإسلام) و (الإسلام الملتهب) وتتردد نفس الأفكار فى مقالات تحمل عناوين مثل (الإسلام قد يكتسح الغرب) و (الحرب الإسلامية ضد الحداثة) و (القنبلة الزمنية الإسلامية)،وليس غريبًا أن تكون الفكرة الراسخة فى عقول الأمريكيين التى تكونت من قراءاتهم فى الصحف والكتب ومشاهداتهم للأفلام وبرامج التلفزيون أن المسلمين قساة غلاظ القلوب لا يعرفون التسامح، يعيشون على البداوة، أفكارهم متخلفة وجامدة، منعزلون عن تيار الحضارة الحديثة ويرفضون الالتحاق بها.. ومنافقون.. ومهووسون بالجنس.

أما صورة المرأة المسلمة فى وسائل الإعلام الأمريكية والكتب المدرسية فإن الدراسة تثبت أنها صورة سلبية، وفى كتاب المواد الاجتماعية للصف السادس يدرس التلاميذ فصلا عن الشرق الأوسط يتعلمون منه أن حياة العرب والمسلمين تتلخص فى الإبل، والخيام، والنساء المنقبات، وأن الفتاة المسلمة التقليدية لا تذهب إلى المدرسة، والمرأة فى المجتمعات الإسلامية لا يمكن أن تملك شيئا، وأن الرجل المسلم يستطيع أن يطلق زوجته بمجرد كلمة، ثم تتضمن الأسئلة فى نهاية الفصل سؤالا للطالبات: أتحب إحداكن أن تكون امرأة فى الشرق الأوسط؟

وفى وسائل الإعلام الأمريكية صورة نمطية للعربى والمسلم: رجل يلبس جلبابا وعمامة، شرير، وخطير، وماكر، شاغله الأول إيذاء الآخرين وخطف الطائرات وتفجير المبانى.. وذلك دون تمييز بين القلة الإرهابية والأمة الإسلامية التى تنتمى إليها هذه القلة.

وقد توصلت هذه الدراسة إلى أن المعيار الذى يحكم الإعلام الأمريكى فى عمومه هو: إذا كان بعض المسلمين والعرب متعصبين فإن معنى ذلك أن كل العرب متعصبون وميلهم للعنف أصيل. وإن وسائل الإعلام الجماهيرية فى أمريكا لم تعد تقدم اليهودى على أنه (شَره) أو الأيرلندى على أنه (سكير) أوالهندى على أنه (متوحش) وأصبحت صناعة غرس الكراهية والخوف من الأجانب موجهة فقط إلى العرب والمسلمين دون سواهم، حتى إن الصحفى الأمريكى جاى ستون كتب مرة يقول: (هل يمكن أن تخرج صورة العربى أو

المسلم فى السينما عن تصويره على أنه واحد من ثلاثة : مليونير.. إرهابى.. عربيد. فأين العرب والمسلمون العاديون فى السينما الأمريكية وهل آن الأوان لكى تتوقف هوليود عن هذه الحرب) ويرسم سام كين مؤلف كتاب (أوجه العدو) الذى صدر عام ١٩٨٦ الوجه الآخر للمأساة وهى أن تشويه سمعة العرب والمسلمين مستمرة على العكس من أى جنس آخر، وذلك نتيجة لعدم تعرض من يحط من شأن العرب والمسلمين لمحاسبة أو عقاب. ولذلك فإن العالم العربى والإسلامى فى التليفزيون والسينما هو عالم سكانه جميعا رجال ذوو لِحًى، وشيوخ مشبوهون بين الحريم، وإرهابيون، وبدو متخلفون لا أخلاق لهم، وحريم خانعات يرتدين ثيابا سوداء من قمة الرأس إلى أخمص القدم، ويسرن فى خضوع و ذله وراء شيوخ متعسفين، ورءوسهن مطأطأة، وليس لهن وظيفة غير خدمة الرجال، والمرأة المسلمة فى الغالب كائن أخرس غير متعلم، ومستعبد.. وباختصار فإن السينما والتليفزيون تعرضان دائما صورة العربى على أنه يفتقد (الوجه الإنسانى) ويعيش فى صحراء بها آبار بترول وخيام ومساجد وأغنام وجمال، أو فى قصور مليئة بالحريم والخدم .

وقد عرضت هوليود ما يتراوح بين ١٥ و٢٠ فيلما أسبوعيا فى الفترة من عام ١٩٨٦ إلى ١٩٩٥ تسخر من العرب، وأقحمت صورة بغيضة للعرب والمسلمين فى أكثر من مائة وخمسين فيلما لم يكن موضوعها عن العرب أو الشرق الأوسط، وإذا كان مارك توين فى عام ١٨٦٩ قال فى كتابه (أبرياء بالخارج): إن أتباع محمد وثنيون .. ملاحدة.. متوحشون.. عيونهم قاسية ومليئة بالكراهية، فإن فى العشرينات قدمت صورة العربى والمسلم على أنه تاجر عبيد، متوحش، وفى السبعينات والثمانينات قدمت صورة العرب والمسلمين على أنهم شيوخ البترول، وفى التسعينات وإلى الآن أصبحت الصورة (إرهابى.. أصولى.. متعصب يصلى قبل أن يقتل الأبرياء) وعرب ومسلمو اليوم فى الإعلام والسينما الأمريكية: شيوخ .. يتميزون بالوقاحة.. غير متحضرين ويرفضون التحضر.. يدمرون اقتصاد العالم .. ويخطفون النساء الغربيات.. ويسعون إلى تدمير إسرائيل وأمريكا .

فى عام ١٩٩٠ عرض فيلم أمريكى اسمه (ليس بدون ابنتى) يصور رجلا مسلما منافقا وكذابا يخطف زوجته الأمريكية إلى إيران، وهناك يسجنها ويسىء

معاملتها، ويصفعها على وجهها ويقول لها متباهيا (أنا مسلم) ويقسم للناس على القرآن ويحنث بالقسم، وتملأ الشاشة مشهد الرجل وهو يغادر المسجد ووراءه عائلته التى أصبحت تعيش فى الأسر والعبودية باسم الإسلام وخلفه صورة للخومينى للإيحاء بأن سلوك المسلمين جميعا تجاه أمريكا والأمريكيين يماثل سلوك الخومينى.

حقيقة جديرة بالاهتمام فى هذه الدراسة، وهى أن صورة اليهودى النمطية التى كان الإعلام فى ألمانيا يلصق بها كل السلبيات والنقائص ويجعل منها كبش فداء وسببا لكل مشكلات ألمانيا لم تعد موجودة الآن، وحلت محلها صورة الفلسطينى والعربى والمسلم بعد تحويرها وأصبح كل من هؤلاء هو (العدو الأول).. والحثالة .. والإرهابى.. والسوس فى قطعة الخشب .. وخنزير.. ومتشرد .. ووحش يقتل الأطفال، ويصور فيلم (أكاذيب حقيقية) إنتاج ١٩٩٤ وفيلم (القرار التنفيذى) عام ١٩٩٦ الفلسطينيين المسلمين على أنهم يتميزون بالعدوانية والسادية ويتلذذون بتعذيب وقتل الأمريكيين الأبرياء بل ويقتلون القساوسة دون اعتبار أو احترام لحرمة رجال الدين، ويقومون فى الفيلم بتفجير قنبلة نووية قبالة شاطئ فلوريدا. وبلغ الإسفاف فى ذلك الفيلم حدا دفع إيفى فيشر أحد أفراد فرقة كوماندوز إسرائيلية سابق ويعمل فى صناعة السينما بهوليود، يقول: (لقد حاربت، ولى أصدقاء عرب ومسلمون، ولكن ما تفعلونه ينزع الإنسانية تماما عن جماعة من البشر). وفى فيلم (القرار التنفيذى) تخطف مجموعة من المسلمين طائرة ركاب، ويقتلون إحدى المضيفات، ويعدون لتفريغ كمية من غاز الأعصاب تكفى لقتل ملايين من سكان العاصمة الأمريكية واشنطن.

ويتكرر فى الأفلام وتمثيليات التليفزيون مشهد الفلسطينى وهو ممسك بيده قنبلة وباليد الأخرى المصحف ويدخل قاعة فندق وينسف من فيها من رجال ونساء... والعنصرية فى الأفلام الأمريكية تظهر فى تصوير الأطفال الأمريكيين العرب على أنهم (همجيون) وتصور العربى والمسلم على أنه يبتلع الطعام مثل الخنزير.. وتهدف مثل هذه الأفلام إلى غرس الشعور بالدونية لدى الأمريكيين العرب واشعارهم بالخجل من أنهم من أصول عربية ومسلمون لكى ينتهى بهم

الأمر إلى التنكر لأصولهم العربية الإسلامية وإخفاء هويتهم، والخجل من إعلان أنهم من أصول عربية وأنهم مسلمون !

يرصد جاك شاهين أن السينما الأمريكية لم تقدم شخصية عربية أو إسلامية لها إنجاز علمى أو ثقافى، لأن صناع الصورة يعلمون ما يحدث عندما يتولى طرف تصوير الآخر وكأنه لا وجود له، وهذا يولد فى الأسر الأمريكية العربية المسلمة شعورا بالعدمية،خاصة بعد أن يستمر عرض فيلم مثل (الرهائن) عام ١٩٩٣ لفترة طويلة وهو يقدم صورة للعرب والمسلمين على أنهم أوغاد يقتلون بأعصاب هادئة، وفى فيلم آخر اسمه (تحت الحصار) يقول وزير الخارجية الأمريكى لسفير دولة إسلامية: (إن أبناء وطنك برابرة) وعندما تحدث فى الفيلم حوادث تفجير فى البيت الأبيض وفى عدد من المتاجر يبحث مدير المخابرات الأمريكية فى سجلات أبناء الجالية العربية والإسلامية الأمريكية عن الإرهابيين الذين ارتكبوا هذه الجرائم. وفى ذلك إيحاء بأن أية حوادث إرهاب لا يمكن أن يقوم بها إلا عرب ومسلمون .

وعموما فإن الأفلام الأمريكية تصور المسلمين على أنهم فى حالة تناقض مع أمريكا، وعبر عن هذه الحقيقة باحث أمريكى بقوله: إن العرب مختلفون عن الأمريكيين فى عقليتهم، وفى تحديدهم لما هو صواب وما هو خطأ، وما هو جدير بالحياة من أجله، وما هو جدير بالموت من أجله، وينبغى أن نستيقظ، ولا نصر على معاملتهم كما لو كانوا مثلنا .

ومن أغرب ما فى هذه الدراسة شكوى الممثل الأمريكى نيقولاس كادى الذى يكتسب شهرته بتمثيل دور إرهابى عربى مسلم يلبس الكوفية، وقال فى حديث له : إنه نادرا ما يقول كلمة فى الأفلام التى قام بالتمثيل فيها .. وإن ما يطلب منه أن يوجه نظرات تهديد وأن يقول فى كل مرة : (أمريكا) ثم يبصق.

والصورة الكريهة للعربى والمسلم تظهر حتى فى الإعلانات التجارية. ويقول جاك شاهين: إنه من المفترض أن الديمقراطية الأمريكية مؤسسة على صحافة حرة تزود الأمريكيين بالمعلومات الصحيحة ، إلا أن هذا الفرض غير صحيح، والصحافة الأمريكية مليئة بالتضليل المتعمد والمعلومات المشوهة عن مسلمى الولايات المتحدة .

ويقول زهير كشميرى فى كتابه (الخليج من الداخل): إن موجة من العنصرية المعادية للعرب والمسلمين اجتاحت كندا وأمريكا وقت حربهما على العراق، ووجد معظم العرب والمسلمون فى أمريكا وكندا أنفسهم مصنفين على أنهم فى خندق العدو، وعانوا من المضايقات والعنف فى الشوارع، والمدارس، وأماكن العمل، واستمر ذلك حتى بعد وقف إطلاق النار، ولم يقتصر ذلك على الأمريكيين العاديين بل شارك فيه مسئولون وازداد الحال بعد تفجير مركز التجارة العالمى فى ٢٣ فبراير ١٩٩٣.. ووصل إلى الذروة بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ . وانتهزت الصحافة وشبكات التلفزيون الفرصة لتصوير المسلمين جميعا على أنهم إرهابيون، وأن تنظيمات طالبان والقاعدة والجهاد هى التعبير عن حقيقة الإسلام .

من الأمثلة التى تتكرر فى الصحافة الأمريكية ما كتبه ليسلى جيلب فى صحيفة (نيويورك تايمز) من أن الإسلام من حيث المبدأ لا يعترف بالتعايش.

وتشير الدراسة أيضا إلى العناوين الرئيسية لبعض الصحف الأمريكية، مثل عنوان (واشنطن بوست) فى ٥ مارس ١٩٩٣ الذى يقول: (الإسلام الجهادى يحارب القيم الغربية: العنف على هامش اليقظة الأصولية) أو العنوان الرئيسى لصحيفة (يو. إس. إيه تودى) واسعة الانتشار يوم ٩ مارس ١٩٩٤ الذى يقول: (المواجهة من جديد بين الإسلام الثورى والغرب).

ويعترف الصحفى ريتشارد كوهن فى صحيفة (واشنطن بوست) بأن الخوف من الإسلام متأصل فى الثقافة الغربية، ويقول: إن الوثائق الرسمية كشفت أن الذين أدينوا بارتكاب أعمال إرهابية فى أمريكا فى الثمانينات كانوا ١٧١ شخصا لم يكن بينهم سوى ١١ شخصا على علاقة بجماعات عربية بنسبة ٦٪ فقط والباقى أمريكيون !

وكتب ديرك جاكسون المحرر فى صحيفة بوسطن جلوب يقول : (إن بعض الصحفيين يكيلون بمكيالين، فعندما يرتكب مسلم جريمة يلصقونها بالمسلمين جميعا، ولا يفعلون ذلك عندما يرتكب مسيحى أو يهودى جريمة فإنهم ينسبونها إلى شخصه دون إشارة إلى ديانته، ولا يعممون صفة الإجرام أو الإرهاب

بالمسيحيين أو اليهود جميعا، فهم لم يصفوا إيجال عامير قاتل إسحاق رابين بأنه (إرهابى يهودى) أو (أصولى يهودى) ولم يصفوا ميتشل جريفى قاتل الدكتور ديفيد جن بأنه (متطرف مسيحى)، ولكن ستيفن أمرسون ظل يكتب على مدى عام كامل بعد حادث تفجير مركز التجارة العالمى عام ١٩٩٣ بأن (العالم الإسلامى فى حرب مع أمريكا) وظل يكرر (إن الراديكاليين الإسلاميين سيهاجمون الأمريكيين لا محالة) وظل يكرر فى عناوين مقالاته الاتهامات إلى (الجهاد) و (القنبلة الإسلامية) و (سيف الإسلام)

وعقب كل حادث إرهابى تظهر فى سلوك الأمريكيين آثار الصورة الذهنية التى غرستها وسائل الإعلام والسينما، فيتعرض العرب والمسلمون فى أمريكا لمضايقات وإهانات، كما يتعرضون لسيل من النكات، ويكون العربى والمسلم هو المتهم الجاهز لكل جريمة، وحتى عندما يظهر المتهم الحقيقى ويتبين أنه ليس عربيا وليس مسلما لا تكترث الصحف الأمريكية بالتصحيح أو الاعتذار .

فعندما وقع الانفجار فى مدينة أوكلاهوما فى ١٩ أبريل ١٩٩٥ وأودى بحياة ١٦٩ شخصا وأصاب أكثر من ٥٠٠ من أطفال ونساء ورجال، وثبت عدم تورط أى عربى أو مسلم فى الحادث، فإن الصحافة أجمعت على الإسراع فى اتهام مسلمين بارتكاب الجريمة، بل صرح مسئولون بأنه تمت مشاهدة أشخاص يبدو أنهم عرب وهم يلوذون بالفرار من مكان الحادث، ونشرت الصحف أن مرتكبى الحادث أشخاص من الشرق الأوسط. وبدأ التشكيك فى ولاء الأمريكيين العرب والمسلمين. وأذاعت شبكة تلفزيون (سى. إن. إن.) يوم ٢٠ أبريل ١٩٩٥ أن السلطات ألقت القبض على ثلاثة رجال من الشرق الأوسط وأعلنت أسماءهم على الرغم من عدم صلتهم بالحادث وثبوت براءتهم بعد ذلك. ووصف مراسلو (سى. إن. إن.) أن الحادث (انفجار سيارة مفخخة على غرار ما يحدث فى بيروت)، ونشرت صحيفة نيويورك تايمز يوم ٢٠ أبريل ١٩٩٥ أن مرتكبى الحادث إرهابيون عرب مسلمون وأنهم عقدوا اجتماعات فى أوكلاهوما وهى مدينة فيها ثلاثة مساجد.

ثم قالت شبكة سى. إن. إن. : إن مرتكبى العملية من منظمة حماس الإسلامية.

وقال ديفيد ايمرسون إن العرب والمسلمين هم وحدهم الذين يستخدمون الإرهاب ضد أمريكا ويسعون إلى إيقاع أكبر خسائر بشرية ممكنة ويجب ألا نصدقهم عندما ينكرون تورطهم فى هذه العملية.

وبعد الحادث بيومين نشرت صحيفة نيويورك بوست رسما لتمثال الحرية تحت الحصار وبجواره ثلاثة مسلمين ملتحون ويلبسون العمائم، يبتسمون وهم يحرقون العلم الأمريكى، وفى افتتاحية الصحيفة فسرت الفكرة التى تريد توصيلها إلى قرائها فقالت: إن هدف الإرهابيين إثارة الخوف، وسنعرف فى الوقت المناسب الجماعة التى ينتمى إليها أولئك الإرهابيون هل هى حماس؟ أو حزب الله؟ أو الجهاد الإسلامى؟

وما جرى بعد ذلك أن الإذاعى الأمريكى بوب جرانت عقب على رسالة من مستمع يدعو فيها إلى عدم التسرع فى تحميل المسلمين مسئولية الحادث. كما علق إدوارد سعيد بمرارة: (إن افتراض أن عربيا أو مسلما ضالعا فى انفجار أو عمل مرعب يُحدِث هستيريا جماهيرية لم أشهد لها نظيرا فى حياتى). وحتى بعد ثلاثة أيام من ظهور نتائج التحقيق وثبوت أن مرتكبى الحادث ليسوا عربا ولا مسلمين لم يعتذر الصحفيون والمعلقون الذين روجوا الادعاء بأن المسلمين هم الجناة ولا يمكن أن يكون أحد غيرهم، وفّسر ذلك مور تايمر زوكارمان رئيس تحرير صحيفة (يو. إس. نيوز. أند ورلد ريبورت) بأن (الطبيعى الاشتباه فى المسلمين، لأن المتطرفين الإسلاميين هم «الآخر» الذى يهدد المجتمع المدنى الأمريكى) – قيل ذلك فى عام ١٩٩٥ وهو لا يختلف فى شىء عما قيل فى أعقاب تفجير مركز التجارة العالمى فى نيويورك ومبنى البنتاجون فى واشنطن يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ، مما يؤكد أن الفكرة الراسخة الثابتة فى الذهن الأمريكى تدفع إلى كراهية المسلمين والشعور تجاههم بالعداء وتوقع الشرور من جانبهم، وربما يفسر ذلك ما أعلنه الرئيس جورج دبليو بوش من أن محور الشر يضم إيران والعراق،وما طرح فى الكونجرس من اقتراح باعتبار سوريا دولة راعية للإرهاب، وما ينشر ويقال من تصريحات عدائية للسعودية، وما يتردد فى الصحافة والكونجرس من تهديدات لمصر واليمن وليبيا، وكل هذه دول يجمعها شىء واحد أنها دول إسلامية، ولذلك فإن العقل الأمريكى يتهمها جميعا بأنها دول راعية للإرهاب دون تمحيص أو دليل .

الغريب حقا أنه بعد أسبوع من إعلان اسم الإرهابى الأمريكى الذى ارتكب حادث تفجير مبنى أوكلاهوما واتضاح الحقيقة بأن المسلمين لا علاقة لهم بالحادث ، ظهرت بعض الصحف تكرر الاتهامات للمسلمين، كما فعلت صحيفة (جلوب) يوم ١٦ مايو ١٩٩٥ فقد قالت فى العنوان الرئيسى فى صفحتها الأولى: (الإرهابيون العرب قاموا بتمويل مرتكبى حادث تفجير أوكلاهوما)، وفى استفتاء حول موقف الصحافة قال العديد من خبراء الإعلام وأساتذة الجامعات: إن الصحافة تصرفت بشكل مسئول ولم تقع فى أية أخطاء، وواصلت الصحافة الحديث عن خطر الإرهاب الإسلامى وضرورة التصدى له بعد أن ثبت أن مرتكبى الحادث هما تيموثى مكفاى، وتيرى نيكولاس، وهما أمريكيان أبا وأما وليسا مسلمين ولا عربيّيْن ولا علاقة لهما بأحد من العرب والمسلمين. ومع ذلك ظل السائد فى الرأى العام الأمريكى أن المسلمين هم المتورطون فى ذلك الانفجار وواصل الأمريكيون الاتصال بالإذاعات وشبكات التليفزيون للتعبير عن هذا الاعتقاد.

والرأى العام الأمريكى معبأ ضد الإسلام والمسلمين منذ سنوات طويلة، وفى استطلاع للرأى أجرى عام ١٩٩٤ كشف أن ٣٩٪ من الأمريكيين يرون أن الإسلام يعرض أمن أمريكا والغرب للخطر، وأن الإسلام أصبح (قوة الشر) الجديدة فى العالم بعد انهيار الشيوعية، وتعبيرا عن التيار السائد ضد الإسلام كتب مور تايمر زوكارمان فى يونيو ١٩٩٦ يقول : إن النبى محمد ﷺ لم يكن أمينا، وكان من مبادئه عدم احترام المعاهدات، وقد يقتدى ياسر عرفات بتصرفات محمد ولا يحترم اتفاقاته مع إسرائيل، فعرفات يتبع مبدأ النبى محمد بإبرام معاهدات مع العدو حينما يكون ضعيفا، وانتهاكها حينما يصير قويا !

ويمكن الإشارة إلى مقالات كثيرة نشرتها الصحف الأمريكية فيما بين عامى ١٩٩٤ و ١٩٩٧ لتأكيد فكرة أن العرب يكرهون الشعوب المتحضرة عموما والأمريكيين والإسرائيليين خصوصا، وأن المسلمين لا يقبلون أى نقد أو خلاف معه، ويعارضون حرية الصحافة، وزعمت أن كل النساء فى العالم الإسلامى يعانين من الاضطهاد، بل وتزعم أن فى العالم الإسلامى أكثر من ٥٠ مليون امرأة تسعى كل منهن إلى اللجوء للغرب. وفى مارس ١٩٩٦ نشر مقال فى مجلة

(دايجست) كتبه بريان أيادس عن عودة الرق، وقال فيه (إن العبيد يتعرضون للضرب والاعتداء الجنسى فى السودان، ويعاملون مثل قطعان الماشية ويتم تصديرهم إلى ليبيا ودول الخليج)! ولا يصف الكاتب تجار العبيد إلا بأنهم عرب مسلمون للإيحاء بأن كل العرب المسلمين تجار عبيد، مع أن المسألة كلها من اختراع الخيال.

وفى فبراير ١٩٩٧ كتب أ. م. روزنتال كاتب العمود الشهير فى صحيفة نيويورك تايمز يقول فى مقال بعنوان (لماذا نتسامح مع الإرهاب): إن الإرهاب يمس كل أمريكى، وكل الإرهاب الموجه إلى الولايات المتحدة مصدره الوحيد تقريبا الشرق الأوسط ، والدول التى ترعى الإرهاب هى: (العراق، وإيران، وليبيا، والسودان، وسوريا).

والإحصاءات الرسمية التى أعلنتها وزارة الخارجية الأمريكية عام ١٩٩٥ تقول إن ٩٦٪ ممن أدينوا فى أعمال إرهابية بالولايات المتحدة ليسوا عربا، ولا إيرانيين، ومع ذلك تجاهلت الصحافة والإعلام الأمريكى هذا التقرير الرسمى واستمرت فى حملتها. وفى ٢٢ أبريل ١٩٩٦ نشرت صحيفة (ميامى هيرالد) رسما لمخلوق يشبه القرد له لحية، ويرتدى عمامة، ويمسك هراوة، ومكتوب على عمامته (الإسلام) وفوقها كلمة (كافر) وتحت الصورة يقول القرد: (نحن نفجر النساء والأطفال و نمزقهم إربا. وفى دورة الألعاب الأولمبية عام ١٩٩٦ قال المعلق الرياضى سكوت سلوان فى الإذاعة: (أشعر بالسأم من الأولمبياد، وحينما ذهب محمد على كلاى ليضىء الشعلة خشيت أن يسقط على شخص من أبناء الشرق الأوسط ويفجر المكان) وحاولت المنظمات الإسلامية فى أمريكا مطالبة المعلق بالاعتذار ولكنه لم يستجب لذلك. كما لم تفكر المحطة الإذاعية بالتنويه أو الاعتذار عن هذه الإساءة للمسلمين والإسلام بدون مناسبة.

وحين سقطت طائرة ركاب أمريكية فى ١٧ يوليو ١٩٩٦ ارتفعت أصوات بمعاقبة إيران والعراق وسوريا وليبيا ومعاملتهم على أنهم كيان واحد، وقال جيفرى هارت صاحب العمود المعروف فى صحيفة (واشنطن تايمز): (إن الرد الصحيح على هجوم إرهابى إسلامى هو شن هجوم فورى مدمر ضد دولة شرق أوسطية، ولا مبرر لعدم معاملة إيران، وسوريا، والعراق، وليبيا على أنهم كيان

واحد، وإذا قيل: إن ذلك سيسفر عن وقوع ضحايا من المدنيين فإن الرد: ماذا يضيرنا من تدمير رعاة الإبل وجامعى التمر؟ !)

ونتيجة هذه التعبئة للرأى العام الأمريكى ضد المسلمين والعرب أن تعرضوا لجرائم ومضايقات، وفى أعقاب كل حادث إرهابى يتحرش التلاميذ الأمريكيون بزملائهم المسلمين الأمريكيين حتى يعودوا إلى بيوتهم وهم يبكون! وحينما وقع انفجار أوكلاهوما تعرض العرب – وخاصة رجال الأعمال منهم – للتهديد بتفجير منازلهم ومحال أعمالهم، وألقى البعض القمامة على المساجد .

ويحدث فى أعقاب تفجير سبتمبر ٢٠٠١ ما حدث فى أعقاب تفجير أوكلاهوما الذى قام به إرهابى أمريكى عام ١٩٩٥، ووجهت اتهامات عشوائية إلى عرب ومسلمين، كذلك فعلوا مع إبراهيم أحمد وهو مواطن أمريكى من أصل أردنى ركب طائرة من مطار أوكلاهوما فى نفس يوم الحادث متجها إلى الأردن لزيارة أسرته هناك، وبعد ساعتين من وقوع الحادث أذيع أنه مشتبه فيه، وبدأ الأمريكيون فى إلقاء القمامة على باب منزله وبصقوا على زوجته، وقبضت عليه المخابرات الأمريكية وهو فى مطار شيكاغو وأخضعته للتحقيق ست ساعات متواصلة، ولم تجد دليلا ضده، فتركوه، وما إن وصل إلى لندن حتى قبضوا عليه ثانية هناك، وفتشوه، وقيدوا يديه، ووجهوا إليه الإهانات، وحققوا معه لمدة خمس ساعات ثم أعادوه إلى واشنطن مرة أخرى، وفى واشنطن جرى معه التحقيق لمدة يوم آخر ثم أطلق سراحه، مع أن إبراهيم أحمد عاش فى أوكلاهوما ١٤ عاما وهو معروف لجيرانه ودائرة عمله وللأجهزة التى تراقب العرب والمسلمين دون تفرقة بين المشتبه فيهم وغير المشتبه فيهم .. ورغم أن الجناة الحقيقيين تمت معرفتهم، وتأكدت براءته دون أدنى شك، فإنه لم يعد قادرا على العيش فى البلد الذى يعتبره بلده، فنظرات الشك والكراهية تحيط به، وسوء المعاملة استمر دون سبب ولم يعد أمامه إلا أن يترك أمريكا !

وفى هذه الدراسة أمثلة تؤكد أن الطلبة النابغين يحرمون من الفرص ويواجهون العقبات إذا كانوا مسلمين، مثلما حدث للطالب عمر عبد المتكلم فى مدرسة كليمنصو فى ميتشجن، ولا تهتم إدارات المدارس بشكوى أولياء أمور التلاميذ المسلمين من سوء معاملة أبنائهم، ومنها شكوى أم تلميذة فى ولاية

كاليفورنيا تقدمت بها إلى مدير المدرسة لأن ابنتها تعود باكية من سوء معاملة زملائها لها فقال لها مدير المدرسة: إذا لم يعجبكم البقاء هنا يا رعاة الإبل فاخرجوا من المدينة! وفى كلورادو اشتكت أسرة أمريكية مسلمة لمدير المدرسة مما جاء فى كتاب التاريخ الذى يدرس لابنها من أن (الإسلام دين مزيف) فرد مدير المدرسة عليها بعبارات ساخرة. وفى مدينة دالاس نادى مدير مدرسة على طالب مسلم: (تحرك وإلا سأحرق خيمتك وأقتل جملك)! وفى ماريلاند شكا التلاميذ المسلمون من أن المدرسات عند الحديث عن الإسلام يقلن إن المسلمين يؤمنون بآلهة كثيرة، وإن صيام رمضان المفروض على المسلمين فيه قسوة خصوصا على الصغار.

وفى هذه الدراسة الشاملة أن الحملة ضد الإسلام فى أمريكا لا تقتصر على الإعلام والمدرسين ولكنها تأتى أيضا من بعض المسئولين، ويسجل ما قاله السناتور ج. ج إيكسوت فى أغسطس ١٩٩٠: (إن حياة الإنسان فى العالم العربى ليست مهمة كما هى فى العالم غير العربى) وقول هنرى كيسنجر فى عام ١٩٩٢: (ليس بوسع أحد أن يصدق أى شىء يقوله عربى)، وفى ١٩ يناير ١٩٩٤ قدمت لجنة من الحزب الجمهورى خاصة بموضوع الإرهاب والحرب غير التقليدية وثيقة إلى لجنة فى مجلس النواب بعنوان (الإسلام ضد الكنيسة) تقول: إن المسلمين يسعون إلى مواجهة مع المسيحيين الغربيين، وجاء فى تلك الوثيقة (إن القيادة الإسلامية شنت منذ ديسمبر ١٩٩٣ مع المنظمات الإرهابية، سيلا من الهجوم ضد الكنيسة بسبب الخدمات الإنسانية التى تقدمها الكنيسة فى أنحاء العالم الثالث، والإسلاميون يخشون من أن تؤدى تلك الخدمات إلى تعليم أبنائهم تعليما غربيا، وتنشئة قيادات جديدة فى العالم الثالث معادية للإسلام).

هذه الكلمات والصورة الكريهة تنشرها وسائل الإعلام ووكالات الأنباء فى أرجاء العالم مما يعمق سوء الفهم وينذر بإمكان الصراع، والأدهى من ذلك أن السياسات تتأثر بتلك الرؤى والأحكام المتحيزة عميقة الجذور، فى حين يتصدى البعض لكل محاولة لبناء جسور التفاهم بين الغرب والإسلام، كما فعل ستيفن أمرسون حين اتهم الرئيس السابق بيل كلينتون

وزوجته هيلارى بمداهنة الإرهابيين العرب والمسلمين، وكتب فى صحيفة (وول ستريت جورنال) يقول: (إن الرئيس وسيدة أمريكا الأولى احتضنا منظمة أصولية إسلامية بالولايات المتحدة مؤيدة لحماس، وهذه المنظمة هى المجلس الإسلامى الأمريكى التى تدافع عن المنظمات الإرهابية الإسلامية).

وهذا الذى قاله ستيفن أمرسون أكبر مثال على المغالطات التى يلجأ إليها أعداء الإسلام لتشويه كل المؤسسات التى تعمل فى أى مجال من مجالات العمل الإسلامى، فالمجلس الإسلامى الأمريكى لا علاقة له بأية منظمات ويعمل فقط فى تنظيم ندوات وإعطاء دروس لتعليم القرآن والمبادئ الإسلامية لأبناء المسلمين الأمريكيين، وليست له أية أنشطة خارج هذا الإطار وهذا معلوم لكل الأجهزة الأمريكية .

ولا تخلو الساحة الأمريكية من أصوات عاقلة ومعتدلة تحذر من عواقب هذا الاندفاع فى العداء للإسلام والمسلمين والعرب، كما فعلت ميج جرينفيلد كاتبة عمود فى مجلة نيوزويك، وكتبت تقول: إن هذه الصورة النمطية التى تتكرر عن العرب والمسلمين.. قد تعوق التوصل إلى سلام حقيقى فى الشرق الأوسط من نتيجة مشاعر التمييز الصريحة المعادية للعرب التى أصبحت ظاهرة فى الأماكن العامة فى الولايات المتحدة الآن.. ومن الأخطاء الجسيمة النظر إلى العرب والمسلمين عند رسم السياسة الخارجية الأمريكية على أنهم جميعا أمة مذنبة.

لماذا كل هذا العداء ؟

يجيب جاك شاهين بعد عشرين عاما من التفرغ لدراسة هذا الموضوع بأن هناك سببين : الجهل ، والتعصب . أما الجهل فيدلل عليه بأن المحررين والكتاب لا يعرفون شيئا يذكر عن الإسلام والعرب والعالم الإسلامى، ولا يوجد بينهم - تقريبا - عربى أو مسلم يصحح أو يقدم صورة صحيحة عن العرب والإسلام. ويذكر أن صحفية قالت فى مؤتمر صحفى عام ١٩٩٣ كان مذاعا على الهواء على شاشات التلفزيون: إنها كانت تظن أن إيران والعراق اسمان لدولة واحدة!

وتبين من إحدى الدراسات أن ٦٠٪ من محررى الشئون الدينية فى الصحف الأمريكية لم يتلقوا دراسة دينية، ويضاف إلى ذلك أن غالبية الصحفيين

الأمريكيين لا يفهمون الإسلام ، ولذلك يكتفون بترديد العبارات النمطية الشائعة بدلا من التفكير فى مدى صحتها أو محاولة معرفة حقيقة الدين الإسلامى. وأخيرا فإن الصحفيين يدركون جيدا أنهم إذا أبدوا أقل تعاطف مع الإسلام والقضايا العربية فسوف توجه إليهم اتهامات بمعاداة إسرائيل وموالاة العرب، وهذه تهمة كفيلة بتهديد حياتهم، فضلا عن أن الشائع بين الأوروبيين والأمريكيين أن الإسلام دين غير عقلانى، ومعاد للعلم والتقدم والحضارة، ويغذى السياسيون هذه الأفكار، ويكفى مثلا ما أعلنه وزير الخارجية الأمريكى وارين كريستوفر عقب انفجار أوكلاهوما بأنه تم إرسال مترجمين عرب لمساعدة المحققين لتأكيد الفكرة السائدة بأن كل عمل إرهابى لابد أن يكون مصدره من عرب ومسلمين، وأكد هذه الفكرة ما أعلنه نائب أوكلاهوما فى ذلك الوقت ديفيد ماكوردى على شبكات التليفزيون: من أن هناك دليلا واضحا للغاية على تورط منظمات إرهابية أصولية إسلامية.

ما أشبه الليلة بالبارحة .. أليس هذا هو ما قيل فى اللحظة الأولى عقب انفجارات ١١ سبتمبر .. وما أعلنه الرئيس بوش من أنه سوف يعلن حربا صليبية على الإرهابيين ؟!

إن الأفلام الأمريكية التى تحط من شأن العرب والمسلمين تحقق أرباحا طائلة، فقد وصل إيراد فيلم (أكاذيب) ١٤٨ مليون دولار داخل أمريكا و ٢١٦ مليونا خارجها فيكون المجموع ٣٦٤ مليون دولار. وطالما يقبل المشاهدون فى أمريكا وأوروبا على مشاهدة الأفلام والمسرحيات والتمثيليات التى تشهر بالمسلمين والعرب فسوف يستمر إنتاج هذه الأعمال الفنية وتزداد (الصورة النمطية) رسوخا.

أين الدول والمنظمات والاتحادات الإسلامية والعربية؟!

لماذا لم تنتج حتى الآن فيلما واحدا يصور كيف كان العرب هم الضحية للاستعمار، والاستغلال، والصهيونية ؟

ولماذا يكتفى الجميع بالبكاء على انحياز الإعلام والثقافة فى أمريكا ضد المسلمين والعرب دون أن يفعلوا شيئا سوى عقد مؤتمرات فى الدول العربية والإسلامية وتبادل الخطب فيما بينهم لإقناع أنفسهم ببراءة الإسلام مما يوجه إليه من اتهامات؟!

لماذا لم يتحرك أحد حركة حقيقية بينما هناك من تحرك من الأمريكيين الذين استشعروا خطورة استمرار هذا الموقف. كما فعل دارت وآلينى فى دراسة مهمة بعنوان (تخطى الفجوة - الدين ووسائل الإعلام) واقترحا فيها عقد اجتماعات دورية غير رسمية بين رجال الإعلام والقادة المحليين والكتاب الإسلاميين لرسم خطوط إرشادية لتصحيح تعامل وسائل الإعلام مع الإسلام والمسلمين والعرب، وكما اقترح البروفيسور آرثر لووای أستاذ العلاقات الدولية بإجراء حوار أمريكى مع المثقفين الإسلاميين فى العالم الإسلامى وفى الولايات المتحدة؛ لأن الغرب لم يحاول فهم الإسلام،وإن الحوار ضرورى ليكون بديلا عن المواجهة، والتغطية الإعلامية الدقيقة كفيلة بسد الفجوة بين الغرب والإسلام ولكن هل يكفى صوت واحد أو اثنين..؟

هذه هى الدراسة الميدانية التى اعتمدت فى كل كلمة فيها على مصادر أمريكية موثقة، ومنذ صدورها عام ١٩٩٧ وحتى اليوم لم يكذب أحد كلمة واحدة مما جاء فيها.

والبروفيسور جاك شاهين الأمريكى الجنسية، أستاذ الاتصال الجماهيرى بجامعة الينوى الجنوبية، وأستاذ زائر بمركز التفاهم الإسلامى المسيحى بجامعة جورج تاون ، وباحث بمؤسسة فولبرايت، ومستشار شبكة (سى. بى. إس) وتزيد مؤلفاته على ٣٠٠ كتاب وتقرير منها كتاب (العربى فى التليفزيون) عام ١٩٨٤، وله أيضا مقالات ودراسات عديدة عن تأثير الصور النمطية والقوالب الجاهزة فى الكتب المدرسية والجامعية والمجلات العلمية والدوريات الأمريكية .

وهذا ما فعله، فماذا فعل المسلمون والعرب للدفاع عن دينهم وقضاياهم غير الصراخ داخل بلادهم؟!

ألم يلفت النظر حالة القبول فى الرأى العام الأمريكى للمجازر والاعتداءات البشعة التى يقوم بها الجيش الإسرائيلى ضد الفلسطينيين نتيجة تعمق الشعور بالعداء للعرب والمسلمين؟!

هل يمكن أن يقوم أحد بعمل مّا؟!

دراسة تطالب بتغيير القرآن !

أثارت كوندوليزا رايس مستشارة الأمن القومى الأمريكى مشاعر المسلمين عندما أعلنت أن الولايات المتحدة سوف تكرس نفسها لتغيير العالم الإسلامى. وكشفت بذلك عن أن الحرب الأمريكية وراءها أسباب غير معلنة، وأعادت إلى الأذهان ما أعلنه الرئيس جورج دبليو بوش بأنه سوف يعلن حربا صليبية، كما أعاد إلى الأذهان إعلان رئيس وزراء إيطاليا برلسكونى بأن الحضارة الإسلامية متخلفة وعلى الغرب أن يغيرها. وإن كان ذلك مما يمكن التغاضى عنه، فإن ما قاله وزير الصحة الإسرائيلى نسيم دهان لا يغتفر، حيث وصف المسلمين وهم يصلون فى الحرم القدسى بأنهم ثعالب ارتقوا، والآن هم أفاعٍ وعقارب وقال: إن المسلمين يتجولون اليوم بصورة آمنة فى القدس، ولكننا سنشهد فى المستقبل أياما سنعرف فيها من هم الأسياد؟ ومن هم العبيد؟

ما سر كل هذه العداوة للإسلام؟

وهل الحروب القادمة ستكون حتمية بين الإسلام والغرب كما يقال؟

حاولت مجلة الأيكونومست البريطانية وهى من أكثر المجلات احتراما فى العالم، الإجابة عن ذلك فى تقرير خاص بعنوان (الإسلام والغرب، الحرب القادمة كما يقولون) فى عددها الصادر فى ٦ أغسطس ١٩٩٤، وأفردت له عشرين صفحة وبدأته بالقول بان هذا التقرير عن فكرة، ربما تكون هى الفكرة الوحيدة المسيطرة على العالم. ونشرت رسما بحجم صفحة كاملة يمثل الحروب الصليبية وغزو أوربا للعالم الإسلامى وكتبت عليه (يجب ألا يتكرر ذلك ثانية

باسم الرب). وتريد بذلك أن تحذر أو تتنبأ بأن الحرب الصليبية سوف تتكرر ويجب منعها من الآن.

ونلخص هذا التقرير المهم فيما يلى دون تعليق:

إن الإسلام يتجاهل الحدود بين سلوك الإنسان فى حياته الخاصة وسلوكه فى حياته العامة، وبين الدين والسياسة، وربما تكون هذه هى آخر أفكار من هذا النوع يشهدها العالم، وإن أهم تنبؤات نهاية القرن العشرين أن العالم الإسلامى يسعى لمحاربة الدول الأخرى التى لا تؤمن بعقيدته عن (الدين السياسى) خاصة فى أوربا، وفى أوربا يتم تعذيب أبناء البوسنة المسلمين على أيدى الصرب المسيحيين. وعلى حدود آسيا وأوربا يضرب مسيحيو أرمينيا المسلمين بعنف يبعث على الاشمئزاز. ولا تزال الاشتباكات فى فلسطين قائمة بين شعب ديانته الإسلام وشعب ديانته اليهودية. وإذا اتجهنا شرقا نجد أن مسلمى الهند يعانون من الاعتداء عليهم فى كشمير، ويقوم الهندوس بتدمير مسجد أبو ضيا عام ١٩٩٢.. ومثل هذه الأمور تجعل المسلمين يشعرون بأن العالم ضدهم، ومادام الأمر كذلك فليس أمامهم إلا أن يقفوا ضد العالم، ونتيجة لذلك دفع (مرض الخوف من الأجانب) جماعات تتمسك بتعاليم القرآن إلى قتل الأجانب فى الجزائر ومصر، وكما قال البروفيسور صمويل هانتنجتون الأستاذ بجامعة هارفارد (إن للإسلام حدودا دموية)، وهانتنجتون هو الذى حدد الإطار الفكرى للمواجهة المحتملة بين الإسلام والغرب، فى مقاله المشهور بعنوان (صراع الحضارات) نشر فى صيف ١٩٩٣ فى مجلة (فورن أفيرز) أكد فيه أن الصراع القادم سيكون بين الثقافات أو الحضارات وكل منها تشمل مجموعة من البلاد، وتوجد فى العالم الآن ثلاث ثقافات أو حضارات هى التى ستكون ساحة للصراع، الأولى هى الحضارة الغربية الأوربية الأمريكية، وهى نتاج عصر النهضة وعصر الإصلاح والتنوير، وهى التى أفرزت الرأسمالية والديمقراطية المعاصرة، والثانية هى الحضارة الكونفوشية القائمة على الاحترام والخضوع للسلطة على أساس أن الحكومات الكونفوشية تستخدم السلطة بأمانة ولمصلحة الشعوب، وهذه العقيدة الصينية تتعارض مع تاريخ الصين الذى لا يخلو

من الكثير من الوحشية التى تميز بها الحكام وما عاناه المحكومون بما يفوق المظالم التى حدثت فى أى مكان آخر على الأرض .. وفكرة وجود تناغم أو تفاهم من نوع خاص بين الحكام والمحكومين فى شرقى آسيا ليست إلا دعاية لحماية الحكام فى بكين وسنغافورة وكوالالمبور وغيرها.

أما المنافس الثالث فهو الإسلام، وهو يقف وحده بصورة فريدة. وهناك سبب قوى جدا لنظرة الكثيرين إلى الإسلام، على أنه وحده المنافس فكريا للغرب، على عكس الكونفوشية، وحضارة أو ثقافة أمريكا اللاتينية، أو السلاف، واليابانيين، فإن الإسلام يظهر كعقيدة تعتمد على اليقين، اليقين من أنه قائم على كلمات الله التى أرسلها إلى محمد آية بعد آية وقام محمد صلى الله عليه وسلم بحفظها وتسجيلها فى (القرآن) .

ومن الظواهر التى لا تحدث فى أى مكان آخر، أن الكثيرين يتسابقون للانضمام إلى هذا الدين بشكل مستمر ومتزايد، سواء كان الاندماج فى الدين بسبب الهزائم أو الإحباطات المتكررة التى تواجه المسلمين من العالم الخارجى أم من عجز وفساد حكوماتهم، فإن ربع القرن الأخير شهد نموا متزايدا لما يسمى (الأصولية الإسلامية) وإن كان المسلمون أنفسهم يكرهون هذا التعبير مع أنه تعبير صحيح. هناك أعداد كبيرة يشعرون بالخزى مما حدث فى القرون الماضية، ويشعرون الآن أن فى إمكانهم العمل بصورة أفضل، وأن عليهم لتحقيق ذلك أن يقوموا بإعادة اكتشاف هويتهم بالعودة إلى القرآن، ويمكن تسمية هذه الحالة (صحوة) أو (انبعاث) أو (ولادة من جديد)، ولكن ذلك لا ينفى أنها عودة إلى الأصول. وهذا هو ما يسبب المخاوف والألم عند الأوربيين لأنهم يرون مسيرة الهلال الإسلامى – آخر العقائد – فى الزحف لتهديد التخوم الجنوبية والشرقية لأوربا. وربما تكون هناك حرب باردة جديدة فى الطريق، وحتما لن تتوقف عند هذه الحالة وتظل حربا باردة. وهناك بعض المسلمين يتصرفون بوحشية فى هذه الأيام ، كما أن هناك بعض الأمور السيئة تظهر فى أوروبا، وفى الماضى كانت هناك أوقات عصيبة بين أوربا والإسلام تمثلت أولا فى محاولة اقتحام جيوش المسلمين أعماق أوربا، كما تمثلت ثانيا فى الهجوم المضاد الذى يسمى (الحروب الصليبية) ثم سيطرة الإمبراطوريات الأوروبية على العالم الإسلامى فى القرن

التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ولم تكن العلاقة بين الإسلام وأوربا علاقة حسن جوار، ولكن كانت العداوات قائمة فى الماضى، والعلاقة فى الوقت الحالى تمر بحالة من التوتر، ولا ينبغى أن تكون هذه الحالة مقدمة لحتمية الحرب بين الإسلام والغرب.

وتقول الأيكونومست إن قليلا من الغربيين يقتنعون بأن القرآن من الله، ولا شك أن الدين كان أحد العناصر للحروب خاصة فى الوقت الذى وصلت فيه جيوش المسلمين إلى (بواتييه) فى جنوب فرنسا، والوقت الذى وصلت فيه جيوش الصليبيين حتى القدس، ولكن لم يكن الدين هو الدافع الوحيد لهذه الحروب. ولكن كانت الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية فى أوربا هما الحضارتين اللتين بلغتا من القوة ما جعل كلاً منهما تسعيان إلى التوسع وتأكيد الذات.

وتقول الأيكونومست: إن المشاكل تأتى عندما تكون مسالة البحث عن الأصالة وتأكيد الذات هى المسيطرة على الشعوب. ولكى يتعايش الغرب والإسلام فى سلام يحتاج المسلمون إلى البحث عن أسلوب للتوفيق بين عاداتهم ومتطلبات الحياة الحديثة وليس فى جوهر الإسلام ما يحول دون ذلك. لقد بدأت الثورة الإيرانية بإعلان عدائها للغرب ولا يزال الإيرانيون يزمجرون! وفى الجزائر يهدد المتمردون الإسلاميون الحكومة، والأصوليون هناك ذوو طبيعة دموية، مع سلسلة من الأخطاء ارتكبها الجنرالات الذين حكموا الجزائر وكذلك الأخطاء التى ارتكبتها معظم الحكومات الغربية مما سيؤدى إلى وصول مجموعة إلى الحكم يصعب التعامل معها، وهم يصبون غضبهم على فساد النظام الحاكم ويسعون إلى أن يكونوا هم البديل له، ويوجهون الغضب إلى الغرب أيضا لأنه يدعم هذا النظام، وإذا نجح هؤلاء فقد يمتد التأثير ليشمل العالم الإسلامى كله. والغضب الذى يشعر به بعض المسلمين تجاه الغرب قد يستنفر الاستياء فى الغرب ضد الإسلام، ويدور الغضب المتبادل فى دائرة.

وتحت عنوان (قنبلة يدوية فى رحلة طيران) تقول الأيكونومست: قد تشهد الفترة القادمة صداما مدمرا عبر المتوسط ! وتشير إلى حادثة هجوم (العصابات الإسلامية) على سجن بالقرب من (بطنة) بالجزائر وقيامهم بإطلاق سراح أكثر

من ألف سجين بمساعدة حراس السجن، وتقول: إن آلة الموت فى هذه الحرب الأهلية تردى ٢٠٠ قتيل كل شهر يمكن أن يقفز العدد إلى ٣٠٠ قتيل كل شهر، مع أنه لا يتم تسجيل حالات الذبح وتفجير القنابل وإطلاق الرصاص على الرأس. والشرطة السرية فى الجزائر يبلغ عددها ٢٠٠ ألف منهم ٤٠ ألفاً فقط يمكن الوثوق فيهم، والجماعات المسلحة تجند المزيد من الشباب وتحصل على المزيد من السلاح، وأساليبهم بشعة .. فهم يقتلون النساء لمجرد ظهور هن بدون النقاب، ويقتلون الأجانب دون تمييز، وأعمالهم الوحشية تمتد إلى الأطراف الغربية من البلاد، والشرطة لا تستطيع التحرك ليلا فى معظم أنحاء البلاد ولا تستطيع دخول بعض الضواحى والقرى حتى فى النهار، وتقوم هذه الجماعات بجباية الضرائب، وتهدد كيان الدولة!

يشعر الغرب بالقلق مما يحدث فى الجزائر ، ويخشى انتشار الفوضى والقتل باسم الإسلام وكراهية الغرب، وسيؤدى ذلك إلى زيادة القمع فى البلاد الإسلامية الأخرى. وقد تمتد توابع ما يحدث فى الجزائر إلى أقصى الشرق. وترى الأيكونومست أن تأثير هذا الزلزال القادم من شمال أفريقيا يمتد إلى أن يصل إلى أوروبا وخاصة فرنسا، وسوف تزداد أعداد المهاجرين المسلمين إلى دول الاتحاد الأوروبى، وأوربا فيها الآن ١٠ ملايين مسلم، وقد يحدث صراع بين المسلمين القادمين من مناطق الاضطرابات والمسلمين المقيمين فى أوربا، وفى مواجهة هذا الاحتمال يحاول الأوربيون منع الهجرة وإعادة المتسللين إلى بلادهم، وتقول الأيكونومست: إن هذه السياسة بطرد المهاجرين قد تؤدى إلى توتر العلاقات مع الدول الإسلامية وتخشى أوربا من وصول الجماعات إلى الحكم وستكون سوق الصواريخ متوسطة المدى قريبة منهم وكذلك الرءوس الكيماوية وربما النووية! وعلى أسوأ الافتراضات فإن حدوث تحالف بين القوى الإسلامية الحديثة والصين سيكون الخطر الذى يهدد كوكب الأرض فى القرن الحادى والعشرين.

وتقول الأيكونومست: إن على الراديكاليين الإسلاميين الذين يسعون إلى العودة إلى الأصول أن يسألوا أنفسهم كيف يمكن أن يتحقق الانسجام بين تعاليم محمد ﷺ التى ورثها للأجيال منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة مع مصالح

المسلمين فى هذا العصر بما فيه من منظمات اقتصادية، والإقرار بحقوق المرأة، والديمقراطية.

وتحت عنوان (تدفق الأموال بين يدى الله) تقول الأيكونومست: إن ما يحدث فى العالم الإسلامى الآن ثورة ضد الفساد والإذلال. تأخذ شكل العودة إلى الأصول الإسلامية، وهذه الصحوة لن تدوم أكثر من الصحوة المسيحية فى حركة الإحياء فى العصر الفيكتورى فى بريطانيا رغم استمرارها ثلثى قرن وساهمت فى بناء الإمبراطورية البريطانية، ولكنْ هؤلاء الأصوليون سيحاولون إثبات صحة ما يقولون به عن الاقتصاد والسياسة وفقا للقرآن، والإسلام يدعو إلى الاقتصاد الحر إذ لم يكن الاقتصاد الموجه معروفا عند ظهور الإسلام، ولم يضع النبى محمد ﷺ قيودا على السوق الحرة غير منع الاحتكار والاستغلال والغش وما إلى ذلك، وعلى ذلك فإن رجل الأعمال المسلم المثالى عليه أن يفعل الخير ويدفع لعماله أجورا عادلة ويحدد أسعارا للسلع مناسبة ولا ينفق أمواله فى الشر، وينفقها فى الاستثمار (وبذلك يقل التضخم) وعليه أن يعتنى بالبيئة التى خلقها الله وعلى البشر ألا يدمروها.ولكن هناك مشكلات مثل: من الذى يحدد الأجر المعقول، وأين دور الله فى الاختيار بين زراعة حقل أو بناء مصنع إليكترونيات مكانه؟، ومن يضمن ان تكون المنافسة بين المشروعات وفق قواعد تحقق مصلحة المجتمع ومصلحة العاملين بدلا من إفلاس بعض المشروعات بسبب المنافسة التى لا ترحم؟، مثل هذه المشاكل ليست غريبة على الاقتصاد الإسلامى، وفى الغرب هناك من يشارك فى البحث عن اشتراكية جديدة كبديل غير ماركسى للرأسمالية التقليدية. ويحاولون أن يجعلوا حرية السوق الموجهة للاقتصاد فى إطار أخلاقى يضمن رعاية الضعفاء وانضباط الأقوياء، كما عبر أحد الاقتصاديين المسلمين بقوله: (إن ما فشلت الشيوعية فى تحقيقه بسلطة الدولة يمكن أن يتحقق بالإنسان نفسه) وقد يكون هذا هو الشعار المناسب لاشتراكية القرن الحادى والعشرين.

والزكاة من الناحية الاقتصادية تساعد الفقراء دون حاجة لوجود مؤسسات، ولكن الدول التى فرضت الزكاة بقانون ولم تتركها اختيارية بل جعلتها إجبارية مثل باكستان كانت الحصيلة قليلة لا تزيد على نصف فى المائة من الدخل

القومى. والذين يجمعون الزكاة يحصلون على أجور تساوى ربع هذه الحصيلة. وفى ماليزيا كانت هناك حالات لمزارعين تم تحصيل الزكاة الإجبارية من فقرائهم وليس من الأغنياء، ولكن مع الأسف هناك إصرار على الدعوة إلى جعل الزكاة إجبارية مع أن نظام الضرائب فى الدول الغربية أكثر دقة ويحقق نفس الهدف بصورة أفضل!

هكذا توجه الأيكونومست نقدها إلى نظام الزكاة.

وتقول: إن النظام الوحيد المفيد الذى يقدمه الإسلام هو تحريم (الربا)، وبعض المسلمين يفسرون آية تحريم الربا بأنه (الربا أضعافا مضاعفة) أى الربا الفاحش، والمسيحية أيضا تحرم الربا الفاحش، وهذا ما كان يدفع المسيحيين إلى الاقتراض من اليهود فى العصور الوسطى. وتعرض الأيكونومست بالتفصيل لفتوى شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوى بأن العائد من إيداع الأموال فى البنوك حلال لأن البنوك توظف أموالها فى الاستثمار ، والبعض فى الغرب بدأت تستهويه فكرة (المرابحة) الإسلامية لأنها تؤكد المشاركة فى المسئولية بين البنك والمستثمر وهذا يجعل السوق الحرة أكثر انفتاحا وأكثر ديمقراطية .. وباختصار تنتهى الأيكونومست إلى القول بأن الاقتصاد الإسلامى ليس نظاما خاصا بالاسلام وحده كما يدعى المتحمسين له، وأيضا هو نظام لا يستحق هذه السخرية من الجاهلين فى الغرب.

وينتهى تقرير الأيكونومست من مناقشة (النظام الاقتصادى الإسلامى) إلى أن فيه جوانب إيجابية وجوانب سلبية وهو فى عمومه ليس جديدا لأن الفكر الاقتصادى الغربى فيه ما يتفق مع كثير من جوانبه.

وتحت عنوان (ماذا فعل الإسلام للنصف الآخر) تصف الأيكونومست مجموعة من السيدات فى ماليزيا لهن نشاط فى المطالبة بحقوق المرأة المسلمة، ويطلقن على أنفسهن اسم (أخوات فى الإسلام) وفيهن المحامية والصحفية وأستاذة الجامعة والموظفة، ومنذ عام ١٩٨٧ وهن يعملن على إثارة الشعور القومى لكى يتفهم المصاعب والمشاكل التى تواجه المرأة الماليزية المسلمة، وهذه الجماعة النسائية تقوم بجمع الأموال، ونشر مطبوعات وكتيبات وتنظيم ندوات وكتابة

مقالات فى الصحف بأسماء رجال، ويجدن الدعم من بعض رجال الأعمال المسلمين، وأكثرهن متزوجات ولهن أبناء، وفيما عدا الحجاب على الرءوس فإنهن لا يختلفن عن زميلاتهن فى لندن أو باريس أو نيويورك.

والحقيقة - كما تقول الأيكونومست - أن أحوال معظم النساء المسلمات ليست مرضية باستثناء بعض التجمعات القليلة مثل عضوات جماعة (أخوات فى الإسلام) فى ماليزيا وأمثالها، أما بدو الصحراء، ونساء الريف فى الدول الإسلامية عموما وفى جنوب شرقى آسيا، فإنهن خاضعات للزوج ويتعرضن للضرب تنفيذا للأوامر الإلهية كما جاءت فى القرآن! وفى مصر والسودان والصومال لا تزال معظم الفتيات يخضعن لعملية الختان وأبسط صور هذه العملية كفيلة بإصابة الإنسان بالفزع.

وتصل الأيكونومست إلى نتيجة : إذا سارت الأمور على ما هى عليه فإنه من الصعب تخيل وجود وفاق طبيعى بين المسلمين وغير المسلمين .

والنتيجة الثانية التى تقررها الأيكونومست: من الصعب حدوث تغيير فى أوضاع المرأة المسلمة، لأن وضعها المتدنى راسخ فى الأعماق بسبب القرآن والرسول محمد ﷺ!

والنتيجة الثالثة : أن الدول الإسلامية التى تتميز فيها المرأة بوضع أفضل يرجع ذلك إلى العادات التى ترسخت فيها قبل وصول الإسلام إليها !

النتيجة الرابعة : أن اقتصاد معظم البلاد الإسلامية لا يهدف إلى تحقيق إنصاف أو حماية للمرأة، مع ملاحظة أن استقلال المرأة اقتصاديا لم يتحقق فى الغرب إلا حديثا جدا، كما أن هذا الوضع المتخلف للمرأة لا يزال قائما فى بعض البلاد غير الإسلامية وغير الغربية .

النتيجة الخامسة : أن رجال الدين الإسلامى هم المسئولون عن تخلف المرأة، لأنهم وضعوا تفسير القرآن وأحكام الفقه فى القرون الثلاثة الأولى من الإسلام وقالوا (تلك حدود الله) مما يعنى أنه لا يمكن لأحد أن يختلف معها أو يفكر فى فهمها على نحو آخر، وأعلنوا قفل باب الاجتهاد والتفكير. ولم تكن عملية عزل أو إخفاء المرأة فى ثياب تغطيها من الرأس إلى القدمين إلا بدعة من الرجل،

مع أن القرآن يشير إلى ملكة سبأ باحترام، فلا غرابة أن تصبح المرأة المسلمة رئيسة وزراء أو رئيسة جمهورية كما حدث فى باكستان، وتركيا، وبنجلاديش ما دام القرآن لم يستنكر وجود امرأة تحكم سبأ ودلل- بالعكس - على حكمتها ورجاحة عقلها أكثر من حكمة ورجاحة عقل مستشاريها من الرجال.

وتركز الإيكونومست على موضوع تعدد الزوجات فى الإسلام، وتمييز الرجل على المرأة فى القرآن بأن يكون نصيبه ضعف نصيبها فى الميراث، وشهادته تساوى شهادة امرأتين أمام المحاكم..

ثم تنتقل الإيكونومست إلى ما هو أهم بالنسبة لها، فتقول إن القرآن مكتوب بلغة تناسب أسلوب القرنين السادس والسابع، وبلغة أقرب إلى الشعر، ولذلك فإنها تحتمل أكثر من تفسير، والآية ٣٤ من سورة النساء تعد أكبر هنات القرآن.. (هكذا تقول الإيكونومست) لأنها تنص على أن الرجال قوامون على النساء، وحين تعصى المرأة زوجها تستحق الضرب، ولكن البعض يتلطف فيقول إن الرجال قوامون على النساء بمعنى أنهم مسئولون عن حماية المرأة، ربما لأن الرجل فى القرنين السادس والسابع كان هو وحده الذى يكسب المال، أما عن الضرب فيقول بعض المفسرين المتلطفين إن المقصود مجرد لطمة لطيفة، ولكن هذه التفسيرات غير مقنعة وتظل هذه الآية مثارا للدهشة (!)

هذا ما تقوله الإيكونومست: ولم يفكر أحد فى إرسال رد يشرح فيه التفسير الصحيح لهذه الآية وسكت الأزهر وعلماء الدين عن القول بأن هذه الآية « من هنات القرآن» !

وتقول الإيكونومست إن معظم ما يقع على المرأة المسلمة يرجع إلى الظروف والبيئة والأحوال الاقتصادية عندما نزل القرآن، فقد بدأت نشأة الإسلام فى الصحراء العربية، فى مجتمع يشتغل فيه الرجال بالرعى، والحرب، والتجارة، ومثل هذه المجتمعات لابد أن يتولى الرجال فيها القيادة، وبعد ذلك انطلق الإسلام صوب الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية، وتأثر المسلمون ببعض عادات هذه البلاد ونقلوها مشوهة إلى بلادهم وطبّقوها على نسائهم، فقد رأى المسلمون الغزاة فى دمشق حين احتلوها أن بعض النساء من طبقة الأثرياء

يرتدين الحجاب لإثبات أنهن نساء متميزات لا يعملن، وهكذا صاحب انتشار الإسلام اختلاطه بثقافات وحضارات مختلفة، وكانت السلطة للأب فى العشيرة فى مجتمع بدوى، وبعد ذلك لم يكن اقتصاد معظم البلاد الإسلامية يسمح باستقلال المرأة اقتصاديا، لأنه اقتصاد يعتمد غالباً إما على الزراعة - والأغلبية من الفلاحين - وإما على التجارة المحدودة فى المدن، ولم تبدأ المرأة فى الحصول على فرصة عمل إلا فى العصر الحديث بعد نشأة المصانع والشركات التى فتحت أبوابها للمرأة التى تريد الهرب من التبعية الاقتصادية التى فرضت عليها منذ القرن السابع.

تقول الإيكونومست: لابد أن تتحرر إرادة المرأة المسلمة فورا، وإلا وجد الإسلام نفسه معزولا.

وتقول الأيكونومست: إن أهم الثورات الاجتماعية التى شهدها العالم هى الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ والثورة الروسية عام ١٩١٧ وحركة الطلبة فى باريس عام ١٩٦٨ وكلها كانت تهدف إلى إعادة تنظيم العلاقة الاجتماعية بين الرجل والمرأة، والآن تقف المرأة على قدميها فى معظم بلاد الغرب، ولكن ليس معلوما لماذا لا تحذو الكونفوشية، والهندوسية، والإسلام حذو الغرب.. والإسلام إذا لم يحذ حذو الغرب فسوف يعانى من العزلة، والانقسام الداخلى، وسوف تظل نصف الطاقة الاقتصادية فيه معطلة.

الحل الذى تطرحه الإيكونومست هو: التغيير.. وتقول إن هذا التغيير يحتاج إلى «رشاقة اقتصادية» وإلى حكومات ذات عقلية متفتحة، والأهم من ذلك لابد من تغيير المؤسسات التى تسعى إلى إبقاء المرأة المسلمة على ما هى عليه من تخلف.

وتقول: إن علماء الدين فى أيديهم تفسير القرآن، وهم الذين أخطئوا فى حق المرأة فى العصور الماضية ومازالوا مستمرين فى الخطأ، ولابد أن يغيروا ما فى عقولهم، ويسمحوا للمرأة بالوصول إلى أعلى مراتب التعليم، وأعلى المناصب، وتحقيق العدالة التى يأمر بها القرآن - فيما عدا آية أو اثنتين (!) - وإذا بدأ هذا لابد من إعادة النظر فى حدود سلطة العلماء، لكى تتحقق الديمقراطية، وغياب الديمقراطية فى العالم الإسلامى هو الموضوع الذى تركز عليه الإيكونومست.

فالمعركة متعددة الجبهات.

تحت عنوان «العائق الكبير أمام الديمقراطية عند المسلمين» تقول الإيكونومست إن أصعب اختبار لقدرات المسلمين لحصولهم على مزايا العالم الحديث هو غياب الديمقراطية.. وفى بحث شمل ٣٩ دولة إسلامية يمكن تجاوزاً القول بأن سبع دول فقط تتمتع بالديمقراطية.

تركيا تجرى فيها انتخابات بشكل منتظم ودورى، وقد تعرضت فى نفس الوقت إلى ثلاثة انقلابات عسكرية فى الفترة من ١٩٦٠ إلى ١٩٨٠، وماليزيا يحكمها ائتلاف أبدى يمثل تيار الوسط بين الماليزيين والصينيين ومهادنة المعارضة الإسلامية، ولا تزال ماليزيا ملتزمة بإجراء انتخابات، بعد ذلك فإن هناك محاولات فى باكستان وبنجلاديش أما لبنان فإنها تتحسس طريقها نحو الديمقراطية بعد الحرب الأهلية، ونحن نرفع القبعة احتراما للملك حسين لأنه سمح للمعارضة الإسلامية بالحصول على مقعد فى البرلمان، وكذلك تحية للثورة الإيرانية لأنها سمحت بإجراء انتخابات أفرزت حكومة معتدلة يمكن التعامل معها، ويمكن بعد ذلك وضع علامة استفهام حذرة حول الانتخابات فى السنغال ونيجيريا والملايو، وفيما عدا ذلك فإن الإسلام يعانى من قصور فى الديمقراطية.

وتحت عنوان «ليست بالشورى وحدها» تقول: إن هناك من يرى أنه من الظلم اتهام المسلمين بأنهم لم يمارسوا الديمقراطية فى العصور الوسطى، حيث لم يكن فى العالم من يمارس الديمقراطية غير أثينا وسويسرا، ولكن بعد ٢٠٠ سنة بدأت الديمقراطية فى الولايات المتحدة وأوربا، وعندما اقترب القرن التاسع عشر ابتلعت الإمبراطوريات الأوربية العالم الإسلامى، وفى الفترة بين عامى ١٩١٨ و ١٩٤٥ تولى الأمر فى العالم الإسلامى رجال يؤمنون بأن عملية البناء والتنمية أهم من الحرية السياسية، وكان معظم السياسيين المسلمين إما قوميين، وإما شبه ماركسيين ديماجوجيين، وإما رجالا لا هدف لهم غير ملء جيوبهم، ومثل هؤلاء لا يصنعون الديمقراطية، كما أن التخلف الاقتصادى كان العقبة النكداء أمام الديمقراطية، ولو كان السياسيون فى العالم الإسلامى لديهم وعى اقتصادى وأكثر أمانة لكان أداؤهم أفضل لمعالجة التخلف.

وكالعادة أرجعت «الإيكونومست» سر تخلف المسلمين إلى الإسلام ذاته، فقالت: إن معارضة الديمقراطية تستند إلى أن القرآن فيه منهج أكثر

صلاحية للبشر، وأن الديمقراطية لها بديل عند المسلمين هو «الشورى»، فالحكومة تستشير الناس، وتتساءل الإيكونومست بسخرية: هل هناك ديمقراطية أكثر من ذلك؟ وتقول إن هناك أمرين مهمين: الأمر الأول أن الرجال الذين يستعينون بالشورى هم على قائمة المبشرين برحمة الله حسبما جاء فى (سورة الشورى-أية٣٨): ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

وفى (سورة آل عمران - آية ١٥٩): ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

وتتساءل الإيكونومست: ما معنى الشورى؟ وتجيب: إنها ما كان يمارسه بارونات العصور الوسطى، أو قادة الجيوش فى العصر الحديث، فالحاكم يسأل الآخرين عما يرون ثم يتخذ هو القرار، فلا مكان للديمقراطية فى الشورى!

ولا تكتفى الإيكونومست فى هذه الدراسة بتشويه مبدأ الشورى، ولكنها تواصل هجومها على مبدأ «الإجماع» فى الفقه، وتقول إنه قائم على أن الأمة لا تجمع على خطأ، فما اتفقت الجماعة على ما ينبغى عمله فهو ما يجب عمله، وقد يبدو ذلك ديمقراطيا، ولكن المشكلة أن هذا الإجماع هو إجماع علماء الدين وهم الذين يحددون الرأى الصواب، وليس من حق فرد من أفراد المجتمع أن ينطق بما يخالف ذلك وإلا يكون خارجا على الإجماع. فالقرآن عند المسلمين هو «كلمة الله» وكلمة الله تحتاج إلى تفسير، والتفسير تحتكره مجموعة تزعم قدرتها على ذلك (!)

وتصل الإيكونومست إلى ما تريد أن تصل إليه منذ البداية وهو «أن الإسلام لا يزال يعيش فى عصر الأوليجاركية (أى حكم الأقلية) وأنه لا يزال يؤمن باليقين الثابت».

وتقول الإيكونومست إن الديمقراطية انبثقت عندما تم التخلى عن فكرة اليقين وعن فكرة سيطرة يقين شخص على آراء شخص آخر، جاءت الديمقراطية وليدة عصر الإصلاح منذ القرن السادس عشر تعلن أن كل إنسان مسئول أمام الله عن

الطريقة التى يعيش حياته بها، ربما يشرح القساوسة تعاليم وإرادة الرب لكن الاختيار فى النهاية للإنسان. وقد استغرق الأمر ثلاثة قرون لكى يتحقق انصهار هذا الأسلوب فى السياسة، وبعد ذلك جاءت النتائج ثورية، كان الملوك يعلنون للناس ما هو صالح لهم، وعلى الناس - نساء ورجالا- اتخاذ القرار، وهذه هى الديمقراطية التى انتشرت بسرعة فى أمريكا الشمالية وغرب أوربا، ولم تواجه الديمقراطية أى خطر بعد انتهاء اليقين الماركسى.

تقول الإيكونومست: إن القرآن يؤكد على مسئولية الفرد، ولا أحد يحمل أعباء الآخرين ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ لكن ليس هذا هو مفهوم المسئولية فى الغرب، فالإطار العام للقرآن هو الجبرية، الله يقدر، والإنسان مستسلم، فالإسلام فى النهاية يعنى الخضوع!

ولا تفهم الإيكونومست أن الإسلام يفرق بين الخضوع لله والخضوع للبشر، وكأنها تريد أن يكون الإنسان حرا أمام الله، فيريد غير ما يريده الله، أو يكون له رأى فيما أمره به الله.. أما فى المجتمع فإن القاعدة تؤكد الحرية «أنتم أدرى بشئون دنياكم» كما أرساها الرسول صلى الله عليه وسلم.

تقول الإيكونومست: هناك فارق كبير بين الطريقة التى ينظر بها المسلمون إلى العالم ونظرة الغرب المسيحى، فإذا عدنا إلى البدايات فإن آدم وحواء بعد أن أكلا التفاحة - الخطيئة الأولى - فإنهما حسب الرواية المسيحية استمعا إلى نصيحة الثعبان «ستصبحون مثل الآلهة» و«ستعرفون الفرق بين الخير والشر»، ولا شىء من هذا فى القرآن، وتفسير البعض أنك عندما تعرف الفرق بين الخطأ والصواب تستطيع الاختيار بينهما، ومن مفهوم الإرادة الحرة تخرج فكرة المسئولية الفردية، ومن هنا تبدأ ممارسة الديمقراطية، والقضية الأساسية أنه كلما زادت فرص الديمقراطية فى الإسلام زادت فرص تقدم الشعوب الإسلامية، وزادت فرص التعايش السلمى بين الإسلام والغرب، ولكن العقبة أن العلماء الذين يدعون المقدرة على تفسير إرادة الله يعتقدون أنهم يحتكرون اليقين وأنهم ليسوا مثل غيرهم. والسلاح القوى فى أيديهم اسمه «الاجتهاد»، والقرآن هو

كلام الله، وفى القرآن ٦ آلاف آية من بينها ٨٠ آية تضع القواعد والقوانين للحياة ويمكن تطبيقها الآن، والاجتهاد مطلوب ولكنه مقصور على عدد محدود وعلى المسلمين أن يتبعوهم. وهذا ما يجعل الحكومات قادرة على استخلاص ما تريد من فتاوى العلماء، والعلماء يقدمون الفتوى إلى القيادات السياسية العليا وليس إلى الجماهير.

من هذه العبارات ندرك كيف أن المفاهيم الإسلامية الأساسية غامضة فى أذهان الكتّاب الغربيين، فالدراسة التى نشرتها الإيكونومست كتبها مجموعة من كبار الباحثين البريطانيين المتخصصين فى الدراسات الإسلامية، ولكن مفهوم «الاجتهاد» ومفهوم «حرية الإرادة التى هى أساس الحساب فى الآخرة» ومفهوم «الاجتهاد» ودور المفتى الذى يتوجه بالفتوى إلى الله وليس إلى الحاكم.. كل ذلك غير واضح فى اذهانهم.

ولذلك تصل الدراسة إلى أنه يجب أن ينحسر دور علماء الإسلام، ويترك لكل إنسان بالغ عاقل حرية الاختيار والحكم، وعلى كل إنسان أن يحمل المسئولية عما يفعل. وقد يستغرق تحقيق ذلك زمنا طويلا لأن تغيير الأفكار لا يحدث فى يوم وليلة، وقد بدأ بعض المستنيرين من مفكرى المسلمين ينادون بعدم قصر الاجتهاد على القلة، وترك الحرية للإنسان ليختار طريقه ويتحمل المسئولية.

وتقول الدراسة: باختصار، على الإسلام أن يعمل على إصلاح نفسه لكى يتحرك نحو عالم الديمقراطية.

وتحت عنوان «نحن الآن فى عام ١٤١٥ » تقول الدراسة: إن جمال الدين الأفغانى أعلن منذ قرن من الزمان أن الإسلام فى حاجة إلى مارتن لوثر لتحريره من قبضة العلماء، وكان الأفغانى رجلاً شديد المراس، وهو أصولى من النوع المزعج (!) وسبب الكثير من القلق لاتباعه، ولذلك لم يهتموا كثيرا بفكرته عن مارتن لوثر، ولكنه للحق كانت لديه المقدرة على التنبؤ، وكلما أمعنت النظر فى أحوال الإسلام فى القرن الخامس عشر وجدته قريب الشبه بالمسيحية فى هذا القرن، وهى الفترة التى سبقت مباشرة دخول أوربا عصر الإصلاح.

وكانت قائمة الإصلاح كما يلى:

أولا: تحرير العقل من الأوهام فى الدين والسياسة، فقد كانت موجة الاستياء السابقة على حركة الإصلاح فى أوربا موجهة أساسا ضد فساد ومادية الكنيسة الكاثوليكية، دون أن تخلو من أهداف سياسية، وقد تسبب البؤس الاقتصادى وسلطة الكنيسة المتحكمة فى ظهور المتمرد «وات تايلور» فى إنجلترا، و«جاكيرى» فى فرنسا، أما موجة الاستياء الحالية فى العالم الإسلامى فإنها موجهة أساسا إلى فساد السياسيين، وقد تحول صرح الديانة الإسلامية إلى كيان متصدع يعلوه التراب (!) بسبب فساد هؤلاء السياسيين.

قد يقول البعض إنه لا يوجد مجال للمقارنة، فالمسلمون لا يقودهم قساوسة، ولا يوجد التنظيم الهيراركى لطبقات رجال الدين كما فى مسيحية القرون الوسطى، والمؤسسة الإسلامية ليست بناء محكما مثل نظام الكنيسة المسيحية إلا فيما يتعلق بالأقلية الشيعية وهم ١٥٪ من المسلمين، أما «الإمام» و«المفتى» و«علماء الدين» فهم يشكلون البناء الرسمى للإسلام، والإصلاحيون الراديكاليون الذين يحلمون بصحوة إسلامية يرون فى هذا البناء الترهل والازدراء (!).

ثانيا: كان فى أوربا فى القرن الخامس عشر شعور عام باليأس بسبب الطاعون الذى تسبب فى موت ثلث السكان دون إنذار أو تفسير، وأيضا بسبب تحلل الكنيسة الكاثوليكية التى كان يقودها بابا فى روما وبابا آخر فى افينون وكانا متنافسين، بينما كانت عوامل الاستياء فى العالم الإسلامى لأسباب خارجية، منها سلسلة الهزائم المذلة على الصعيد الدولى، وموجات السلب والنهب التى كان يتعرض لها المسلمون من جيرانهم، وشعور المسلمين المتزايد بالعزلة، ومع هذه الاختلافات كانت النتائج واحدة، وكان واضحا أن هناك شيئًا مَّا.. وأن الأمور تسير فى الاتجاه الخاطئ، وعندما يستشعر الناس هذا الخطأ يأتون بأفعال خطيرة.

ثالثا: الرغبة فى وضع الأمور فى نصابها بالعودة إلى جذور الإيمان، وبالنسبة للمتحمسين للصحوة الإسلامية فإن عبارة العودة إلى الجذور تعنى العودة إلى

بساطة الأيام الأولى للدعوة، وهذا ما كان يدعو إليه رجال من أمثال جون ويكليف، وجان هس، وقد أفرزت الفترة السابقة على الإصلاح الدينى فى أوروبا العديد من الفرق والطوائف كانت معظمها ترى أن واجبها التبشير بين الفقراء، والآن أيضاً أفرزت الصحوة الإسلامية عددا كبيرا من الجماعات ترى أن رسالتها إنشاء المستشفيات، وإقامة مائدة الرحمن فى رمضان، والمدارس الابتدائية فى ضواحى المدن، فالعودة إلى الجذور عندهم تعنى العودة إلى عمل الخير ورعاية المحتاجين أى «الإحسان». و«الزكاة».

رابعا: التشابه الذى يلفت النظر بين حركة الإصلاح المسيحية والإسلامية وجود عناصر إثارة خارجية، وفى رأى جورجين نيلسن مدير مركز العلاقات المسيحية الإسلامية بكلية «سيلى أوك» فى برمنجهام أن الذى ساعد على ظهور حركة الإصلاح عنصران قادمان من خارج أوربا، الأول امتزاج حضارة أوربا بالإمبزاطورية العربية، وترى الدراسة أن هذا أمر يدعو للسخرية، لأن الحضارة العربية هى التى أعادت أوربا إلى جذورها الحضارية فى اليونان القديمة، وإلى الإفادة من إنجازات العرب فى العلوم والفنون، فساعد ذلك على ظهور عصر النهضة الذى ساهم بدوره فى ميلاد عصر الإصلاح، أما العنصر الخارجى الثانى فهو اكتشاف أمريكا عام ١٤٩٢ وأعقبه اكتشاف الذهب والفضة مما أنعش الاقتصاد الأوربى، وفى العالم الإسلامى كان لاكتشاف البترول أثر يماثل اكتشاف الذهب والفضة فى أوربا، فقد أدى البترول إلى إثراء بعض الدول الإسلامية، وجاءت صدمة البترول بين عامى ١٩٧٣ و ١٩٧٩ وارتفاع أسعاره فحوّل الدول الإسلامية الغنية إلى الأكثر غنى، وكما امتزجت الحضارة الأوربية بالحضارة العربية فى القرن الخامس فكان فى ذلك الشرارة للإصلاح، فإن هذا ما يحدث الآن – ويا للسخرية – من امتزاج الحضارة العربية بالحضارة الأوربية الحديثة، والإفادة من إنجازاتها التكنولوجية والعلمية.

هذه هى عناصر التشابه الأربعة بين عصر الإصلاح الدينى فى أوربا فى القرن الخامس عشر والإصلاح الدينى الآن فى العالم الإسلامى.

تريد دراسة الإيكونومست أن تقول: إن الإسلام متخلف خمسة قرون عن مسايرة العصر، وتضيف أن حركة الإصلاح الدينى فى الإسلام – كما يرى

المتشككون – لن تتحقق قبل زمن طويل.. ففى أوربا استغرقت المسيرة من عصر النهضة إلى عصر الإصلاح الدينى ١٥٠ عاما واستغرقت المسيرة من الإصلاح إلى النمو الفعلى للديمقراطية ٣٠٠ عام، ونحن لا نستطيع انتظار كل هذه السنين!

إذا كانت هذه الدراسة قد نشرت فى أكبر المجلات البريطانية، وأصبحت مرجعا لكثير من الباحثين والمعلقين الذين يتناولون الإسلام فى كتاباتهم، فماذا فعلت المؤسسات الإسلامية؟.. وإذا كان الرد أنه لا يمكنهم متابعة كل ما ينشر فى أنحاء العالم والرد عليه، فهذا هو الخطأ الذى نريد أن ننبه إليه لنقول إنه يجب أن يكون عندنا – كما فى الدول الكبرى – مركز أو مؤسسة أو جهاز يتابع كل ما ينشر، ويرد على ما فيه من أخطاء واتهامات أولا بأول، ولا يترك الساحة خالية لتشويه الإسلام فى الغرب.

يجب ألا نكتفى بالقول بأنهم مخطئون.. ولكن يجب أن نعترف بأننا مقصرون.